

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
1401AH-1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

سلسلة أبحاث علمية ١٠

وعلى الرغم من أن الإسلام

محمود فريخ الدبرdash

محمود فرج الدمرداش

- من مواليد الشرقية ، مصر ، ١٩٤٩ .
- بكالوريوس الهندسة ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ماجستير الهندسة ، جامعة ماكماستر بكندا ، ١٩٧٧ .
- دكتوراه الفلسفة في الهندسة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ .
- مستشار المؤسسات الصناعية في صناعات الحديد و الصلب والالومنيوم والمنسوجات وغيرها .
- استاذ هندسة الفلزات ، كلية الهندسة ، جامعة القاهرة .
- له ما يزيد على خمسة وعشرون بحث علمي بالداخل والخارج واشترك فيما يزيد على ستين تقرير صناعي تطبيقي .
- ساهم فيما يزيد على عشرة مشاريع صناعية قومية داخل مصر وخارجها .

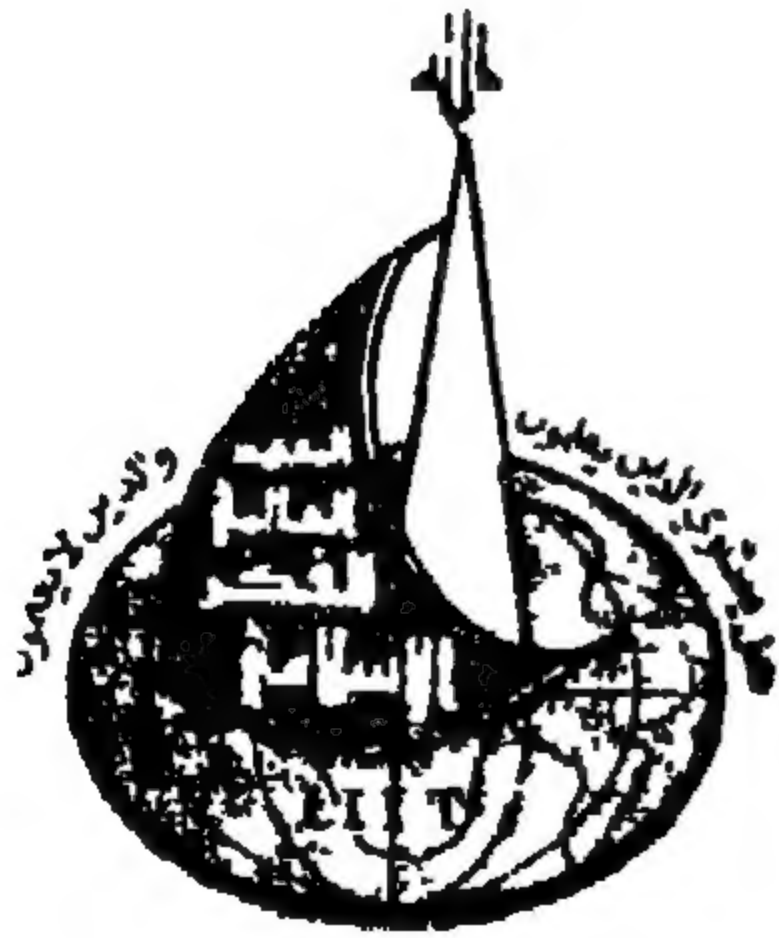
وَعَلَىٰ آلِهِ السَّلَامُ أَجْمَعِينَ

محمّد فزیح الدرداش

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد
تعبر عن آراء واجتهادات مؤلفيها



المعهد العلمي للفكر الإسلامى

وَعَلَّمَ الْكَلِمَ الْكُلَّ

مجموع فروع الدرر والشجر

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

القاهرة

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

(سلسلة أبحاث علمية ؛ ١٠)

© ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

جميع الحقوق محفوظة

المعهد العالمى للفكر الإسلامى

٢٦ب- ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج.م.ع

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المعهد بالقاهرة .

الدمرداش ، محمود

وعلم آدم الأسماء كلها / محمود فرج الدمرداش . - ط١ . - القاهرة : المعهد
العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٩٦ .

٦٣ ص ، سم . - (سلسلة أبحاث علمية ؛ ١٠)

يشتمل على إرجاعات بيلوجرافية .

تدمك X - ٨٤ - ٥٢٢٤ - ٩٧٧ .

١- القرآن - تفاسير حديثة

أ- العنوان ب- (السلسلة)

رقم التصنيف : ٢٢٧,٦٥

رقم الإيداع : ١٠٥٥٥ / ١٩٩٦ .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
التصدير .	٧
الفصل الأول : وعلم آدم .	٩
الفصل الثاني : الأسماء .	١٩
الفصل الثالث : نظرات في العلوم التجريبية ودور الأسماء فيها .	٣٣
الفصل الرابع : كلها .	٥٥
الخاتمة .	٦١

تصدير

الجمع بين القراءتين ، قراءة الكتاب المسطور والكون المنظور ، قراءة الوحى والوجود من أهم أهداف قضية إسلامية المعرفة ، إنها ليست إلا إعادة القراءة المرة تلو المرة إعمالاً لما فى اسم "القرآن" من ضرورة تكرار فعل القراءة وتفصيلها ، وإرساءً لتحريك معنى التدبر بالقراءة المتأنية الواصلة بين الوعى والسعى ، والعلم ، والعمل ، والنظر والفعل ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وهذا الجمع ليس مجرد الجمع الميكانيكى بل هو جمع يحرك القراءتين صوب التلاقى والتلاحق والتفاعل والجدل .

إن الجمع بين القراءتين ليس هو فعل القراءة بقصد ما أسمى بالإعجاز العلمى للقرآن، وشيوعه فى صورة البحث عن أصول النظريات العلمية فى القرآن ، فإن هذا البحث ضمن هذه المناطق غير مأمون العواقب ، والجمع بين النص الثابت من ناحية وما هو متغير (النظريات العلمية) من ناحية أخرى لابد أن يرتبط بمنهج قويم يحرك أصول القراءة الواعية ، لا مجرد قراءة تبدى آراء وتؤسس رؤى من نظرة أولى فتربط بين نظرية علمية وآية قرآنية من غير ملاحظة وما يترتب على هذه القراءة التبسيطية الخارجة عن حد تكرار القراءة وفق منهج منضبط بما يؤدى إلى ممارسة قراءة التدبر ، فلماذا بحث من بحث ضمن مدرسة الإعجاز العلمى فى القرآن عن أصول النظريات العلمية والطبيعية والبيولوجية وتوقفوا عند هذا الحد ، ولم يشيروا من قريب أو بعيد إلى إعجاز القرآن فى المجالات الإنسانية والنفسية والاجتماعية على كثرة ما أشار القرآن إلى مثل ذلك فى آياته المحكمات ، إن منهج السنن الذى تتواصل فيه السنن الكونية بالسنن الاجتماعية والنفسية والتاريخية يعتبر بحق أحد مناطق الإعجاز التى ندر الاهتمام بها أو توجيه البحث إليها .

إننا فى هذا البحث أمام عناصر قراءة أعادت قراءة الآية مرات ، وتدبرت معانيها وسعت إلى الغوص فى مكنوناتها من دون أن تحملها مالا تحتمل أو تمر عليها مرور الكرام، إنها الآية التى تعتبر بحق مفتاح الإنسانية فعلاً وفعالية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ، إن علم الأسماء كان أهم عناصر مهمة الاستخلاف للإنسان وحمله الأمانة ، ومثلت هذه الآية نموذجاً للإعجاز القرآنى فى علاقة العلم بالأسماء وبالإنسان وبمهمته ورسالته وحركته فى الكون ، هذا مانعته إعجازاً علمياً للقرآن لا محاولة القول بالتشابه بين نظريات علمية وآيات قرآنية من غير قراءة وتدبر تجمع بين قراءة الوحى وقراءة الوجود .

المعهد العالمى للفكر الإسلامى

القاهرة

الفصل الأول

وعلم آدم

قصة خلق آدم وهبوطه على الأرض وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وفي سورة البقرة يوضح لنا القرآن الكريم مدار بين الحق سبحانه وتعالى وبين ملائكته، إذ قال لهم أنه سبحانه وتعالى سيجعل في الأرض خليفة، فردت عليه الملائكة مستكرين بأن هذا الخليفة سيفسد فيها ويسفك الدماء بينما هم - أي الملائكة - يسبحون بحمد الله ويقدمون له، فالملائكة أحسوا بجسامة الأمر وأنى لمخلوق أن يخلف الله في الأرض، وكيف سيمكنه أن يحمل الأمانة، ويقوم الخير ويتجنب الشر، فهذه مسئولية ضخمة، والملائكة خدام للعرش يتصرفون بأمر الله ويسبحون بحمده ويقدمون له، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، فقال لهم الحق سبحانه وتعالى أنه يعلم ما لا يعلمون.

ولكى يبرهن الحق لهم على أنه يعلم ما لا يعلمون - علم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم انبتوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، فردوا عليه ردهم الصادق قائلين: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم، فقال لآدم انبتهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال لهم الحق ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبلون وما كنتم تكتمون.

إن هذه القصة توضح لنا أهمية الأسماء، وعظمتها وكل منا يجد أسماء الأشياء والأشخاص والمعاني شيئاً يسيراً سهلاً، لا يجد فيه صعوبة تقارن بمسائل الرياضيات ونظريات الفيزياء والتراكيب البيولوجية، ومع ذلك فقد كانت الأسماء هو ما علمه الحق سبحانه وتعالى لآدم حتى يبرهن للملائكة أن آدم مهيو ليكون خليفة في الأرض ولكى يريهم قبساً من علم الله، لقد خصها الله بدلالة خاصة عندما علمها لآدم، فقد قالت عنها الملائكة: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم.

سبحان الله. الملائكة أنفسهم لا علم لهم بالأسماء، ومن الملائكة من يتحرك بين السماء والأرض موحياً بالرسالات مثل جبريل، ومنهم من يختص بالريح مثل ميكائيل، ومنهم من يقبض الأرواح بأمر الله، ويضع نهاية الإنسان وهو عزرائيل، وهؤلاء الملائكة، أعلنوا جهلهم بالأسماء، وكانوا في إعلانهم هذا صادقين.

لهذا لا بد وأن للأسماء دلالة خاصة وقيمة خاصة، الأسماء التي كانت البرهان على مستوى العرش الإلهي - على علم الله وعلى قدرة آدم أن يخلف الله في الأرض. وقد أفردنا هذا الكتيب لدراسة هذه الأسماء، وسنبداً إن شاء الله بتفسير قصة آدم بما فيها تعلم

الأسماء كلها كما وردت فى التفاسير المتاحة لنا ، ثم بعد ذلك نبسط القول فى تعلم الأسماء كلها وقيمة ذلك فى حياة الإنسان .

أقوال المفسرين فى تفسير الآية

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ .

تفسير القرطبى :

يقول القرطبى^(١) إن إزاء تدل على الزمن الماضى ، وجاعل بمعنى خالق ، والخليفة يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة ، وخليفة بالفاء قراءة الجماعة ، وإلا ماروى عن زيد بن على فإنه قرأ خليفة بالقاف ، وفى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل أن آدم خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره ، لأنه أول رسول إلى الأرض ، فكان رسولا إلى ولده ، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا ، فى كل بطن ذكر وأنثى .

ولا خلاف بين الأئمة أن آدم إمام وخليفة يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (سورة ص - الآية ٢٦) ، وقوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (سورة النور - ٥٥) . والملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول ، وذلك عام فى جميع الملائكة لأن قوله : لا يسبقونه بالقول خرج على جهة المدح لهم ، فكيف قالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها) فقل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد ، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ، ولكنهم عمموا الحكم على الجميع بالمعصية ، فبين الله لهم أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد ، فقال تطيبوا لقلوبهم (إنى أعلم ما لا تعلمون) ، وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء .

(١) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، كتاب الشعب ، دار

وقيل أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء ، وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم والحقهم بالبحار ورعوس الجبال ، وهذا ما جعلهم يتساءلون : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ .

كما قال سعيد بن جبیر : إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سمي إنسان لأنه نسي ، وروى السدي عن ابن مالك عن ابن مسعود في قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تقبض مني أو تشينني ، فرجع ولم يأخذ ، وقال : يارب إنها عاذت فأعذتها ، فبعث ميكائيل ، فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث ملك الموت ، فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبياض وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين - ولذلك سمي آدم لأنه أخذ من أديم الأرض - فصعد به ، فقال الله تعالى له : أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها ، فقال : أنت تصلح لقبض أرواح ولده .

ويقول القرطبي في قوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ، علم معناه عرف : وتعليمه هنا الهام علمه ضرورة ، ويحتمل أن يكون بواسطة ملك وهو جبريل عليه السلام ؛ وقال علماء الصوفية : علمها بتعليم الحق إياه وحفظها بحفظه عليه ، ونسي ما عهد إليه لأنه وكله فيه إلى نفسه فقال : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ (سورة طه - ١١٥) . وقال ابن عطاء : لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة في الانخبار عنها ، ويستمر القرطبي فيقول : الأسماء هنا بمعنى العبارات فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى ، وقد اختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التي علمها لآدم عليه السلام ، فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبیر : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها ، وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علي قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط ، قال ابن عباس : وعلم آدم الأسماء كلها .

ولفظ كلها يقتضي الإحاطة والعموم ، وفي البخاري من حديث أنس عن النبي ﷺ قال : ﴿ويجتمع المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم ، فيقولون أنت أبو الناس ، خلقتك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء﴾ ، قال ابن منداد : في هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توفيقا ، وإن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلا ، وكذلك قال ابن عباس : علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والحلب ، وروى شيبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم

الملائكة ، وسمى كل شيء باسمه ، وأنهى منفعة كل شيء إلى جنسه ؛ قال النحاس : وهذا أحسن ما روى وهذا والمعنى علمه أسماء الأجناس ، وعرفة منافعها ، هذا كذا وهو يصلح لكذا ، وقال الطبري : علمه أسماء الملائكة وذريته وأختار هذا ورجحه بقوله : (ثم عرضهم على الملائكة) وقال ابن زيد : علمه أسماء ذرية كلهم ، وقال الربيع بن خثعم : (أسماء الملائكة خاصة) وقال القتيبي : (أسماء ما خلق في الأرض) وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

ويقول القرطبي أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام ، والقرآن يشهد له : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته ، وبهذا جاءت السنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا حَتَّى الْقِصْعَةَ وَالْقِصْيَةَ﴾ .

تفسير ابن كثير :

ويقول ابن كثير^(١) : هذا مقام ذكر الله تعالى فيه - شرف آدم على الملائكة ، بما أختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة ، حين سألوا عن ذلك ، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم ، بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ، وقال السدي عن حدثه عن ابن عباس قال : علمه أسماء ولده إنسانا وإنسانا والدواب فقيل هذا الحمار ، وهذا الجمل ، وهذا الفرس ، وقال الضحاك عن ابن عباس قال : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسما وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ، وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم ابن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس قال : علمه اسم الصخرة والقدر قال نعم حتى الفسوة والفسية ، وقال مجاهد : علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء وقال الربيع في رواية عنه أسماء الملائكة ، وقال حميد الشامي أسماء النجوم ، وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته كلهم ، واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال (ثم عرضهم) وقد قرأ عبد الله بن مسعود (ثم عرضهن) ، وقرأ أبي بن كعب (ثم عرضها) أي السماوات .

ويرى ابن كثير أن الصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها ، كما قال ابن عباس : (حتى الفسوة والفسية) يعني ذوات الأسماء المكبر والمصغر ، واستشهد ابن كثير بقول البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه :

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، مكتبة دار

حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقتك الله بيده ، واسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هناكم ، ويذكر ذنبه فيستحي ، إئتوا نوحاً فإنه أول رسول الله بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي فيقول أئتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم ، فيقول أئتوا موسى عبداً كلمه الله واعطاه التوراة ، فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ويذكر قتل النفس بغير نفس ، فيستحي من ربه ، فيقول أئتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه ، فيأتونه فيقول لست هناكم ، أئتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتوني فأنطلق حتى أستاذن ربي ، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً ، فيدعني ما شاء الله ثم يقال : إرفع رأسك ، وسل تعطه ، وقُل يسمع ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه فإذا رأيت ربي مثله ثم أشفع ، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة ، ثم أعود الرابعة فأقول ما بقى في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود ، هكذا ساق البخاري هذا الحديث والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام : فيأتون آدم فيقول أنت أبو الناس خلقتك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ، ولهذا قال ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ أي المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة . وقال السدي في تفسيره عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرض الخلق على الملائكة ، وقال مجاهد : ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة .

تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى :

ويقول الشيخ محمد متولى الشعراوى^(١) أن الكلام هنا لا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحداً من الخلق ، بدليل أنه قال : ﴿إني جاعل﴾ كأمر مفروق منه ، ولكنه اعلام للملائكة ، والله سبحانه وتعالى عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة ، فهناك المدبرات أمراء والحفظة الكرام ، وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة ، وتتصل بحياة هذا المخلوق الجديد ، ولكن هذا الخليفة - سينخلف من ؟ قد يخلف بعضه بعضاً ، ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق ،

(١) محمد متولى الشعراوى : "معجزة القرآن" ، الجزء الثامن ، كتاب اليوم ، جمهورية مصر العربية ، العدد ٢٥٦ -

وجعل الكون مسخراله ، فكأنه خليفة الله في أرضه ، أمله بعتاء الأسباب فخصع الكون له بإرادة الله^(١) ، وليس بارادة الإنسان .

والله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في القرآن أنه خلق الجن قبل خلق الإنسان ، قال تعالى : ﴿والجن خلقناه من قبل من نار السموم﴾ (الحجر - ٢٧) .

ولذا من المحتمل أنه كان هناك خلقا أفسدوا في الأرض ، وأن الملائكة شهدوا التجربة وقاسوا عليها ، ولذا فقد استكر للملائكة الخلق الجديد ، وظنوا أن الله سبحانه وتعالى يريد خلقا يسبح بحمده مقهورين ، ولم يكونوا يعلمون علم الله سبحانه وتعالى في أنه يريد خلقا يأتونه طائعين مختارين ، وعدم علم الملائكة من مرادات الله هو من تمام علم الله ، وقد جعل الله بداية العلم للبشرية كلها بالأسماء ، فكما علم الله آدم الأسماء فإن أى بشر لا يستطيع أن يصل إلى العلم الذى يؤهله ليبدأ التحصيل إلا إذا تعلم الأسماء .

ثم يضرب الشيخ الشعراوى مثلا بالطفل الصغير ، أى طفل فى أى مكان فى العالم - كيف يبدأ تعليمه ؟ ، إذا كان فى المدرسة أو كان أميا فى البيت يبدأ تعليمه بالأسماء أولا ، فيقال له هذا كوب وهذا جبل وهذا رجل وهذا بيت الخ ، وبعد أن يتعلم الأسماء يبدأ فى تحصيل العلم ، ولكن بعد أن يكون قد استوعب الأسماء ، وحتى الطفل الأمي الذى لا يذهب إلى المدرسة تقوم أمه بمهمة تعليمه الأسماء ، حتى يستطيع أن يتعلم بعد ذلك كيف يمضى فى حياته العادية ، وبدون تعلم الأسماء فإن الطفل يتعثر ولا يستطيع أن يمضى ولا أن يحصل علما .

وهكذا أنبأنا القرآن بالطريقة التى حددها الله ليحصل الإنسان على العلم بداية بالأسماء .

وبعد أن علم آدم الأسماء عرضهم على الملائكة ، وطبعا لم يعرض الله الأسماء على الملائكة ، وإنما عرض المخلوقات التى تطلق عليها الأسماء على الملائكة بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿انبتوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فالله قد عرض المخلوقات التى تطلق عليها هذه الأسماء ، ثم طلب من الملائكة أن يقولوا له الأسماء ، فقالوا سبحانه ، أى تعاليت وتنزهت عن أن يحيط بعلمك ومراداتك أحد ، قالوا معترفين بعجزهم أمام قدرة الله سبحانه وتعالى : ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ ، وكل مخلوقات الله لا علم لهم إلا ما أتاه الله لهم من العلم ، فالعلم كله يأتى من الله ، والله يكشف من علمه وقدراته فى الكون ما يشاء لمن يشاء ، وكل كشف علمى فى الكون قد جعل الله له ميلادا أو موعدا يكشفه فيه للبشر ، فإن صادف مولد هذا العلم باحثا يبحث فيه كشفه الله له ، وإن لم يصادف تم الكشف بما نسميه نحن الصلغة .

(١) محمد متولى الشعراوى : "الله والكون" ، دار المسلم للعاصر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ .

والمصادفة التي ندعيها في الكون هي الموعد أو الميلاد الذي حدده الله سبحانه وتعالى ليكشف عن قانون في الكون يجهله الناس ، عسى أن يدركوا بهذا القانون الذي كان يعمل في خدمة الإنسان ، ولم يكن أحد يدري عنه شيئا ، عسى أن يكتشفوا بهذا القانون اعجازا من اعجازات الله في كونه ، فيزيدهم هذا الإعجاز فهما وإدراكا لعظمة وقدرة الله سبحانه وتعالى ، ولكن الذي يحدث للأسف الشديد أن الإنسان ينسب الفضل لنفسه وينسب الكشف لنفسه ، وينسى قدرات الله ، وكل شيء في هذا الكون ابتداءً وانتهاءً هو من الله ، فحبة القمح التي نأكلها الآن أتت من زرعة القمح في الموسم الماضي ، وزرعة القمح في الموسم الماضي أتت من زرعة القمح في الموسم الذي قبله ، وهكذا تتسلسل الأشياء ، حتى نصل إلى حبة القمح الأولى ، التي لم تأت من موسم سبق ، من أين أتت هذه الحبة ؟ من الله سبحانه وتعالى ، والشجرة التي تراها أمامك جثنا يبذرتها من شجرة سابقة ، والسابقة جثنا يبذرتها من شجرة أسبق ، وهكذا نمضي حتى نصل إلى الشجرة الأولى ، من الذي أنبتها مادامت لم تأت من شجرة سابقة ، فلا بد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أو جدها .

قال الله لآدم : ﴿ يَا آدَمُ ابْنِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ ، أى أن الله سبحانه وتعالى طلب من آدم أن ينبئ الملائكة بأسماء تلك المخلوقات ، التي لا يعرفون أسماءهم ، والتي عجزوا أن يذكروا أسماءهم أمام الله ، وهنا نتوقف قليلا لنقول كيف أنبأ آدم الملائكة بهذه الأسماء ، لا بد أنه أنبأ بها بلغة يفهمونها ، فما دامت هي أسماء فهي تنطق أى تقال ، فمن أين عرف آدم اللغة التي يتحدث بها ، واللغة هي وليده البيئة أى أنها لا تورث ولا تكون في الإنسان بالطبيعة ، بل للإنسان أن يسمع حتى يتكلم ، ولذلك نجد أن الصم الذين لا يسمعون والذين ولدوا هكذا لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد ، وآدم قد نطق بأسماء هذه المخلوقات فلا بد أنه سمع حتى يستطيع أن ينطق ، فمن الذي علم آدم الكلام ؟ إنه الله ؛ فلا بد أن آدم لكي يستطيع أن يتكلم يكون قد سمع من الله ، وهكذا فإن هذا إعجاز آخر من أعجاز القرآن الكريم ، يدل على أن الله هو الذي علم الإنسان الكلام ، وآدم قد تعلم اللغة من خالقة سبحانه وتعالى .

وفي كتابه ﴿أسماء الله الحسنى﴾ يشرح لنا الشيخ محمد متولى الشعراوى^(١) أن الله سبحانه وتعالى كان ولم يكن معه شيء ، ثم خلق الخلق وأطلق على كل مخلوق اسما يترك عليه ، بحيث إذا أطلق الاسم تبادر إلى الذهن صورة المسمى ، فحين أقول لك شمس ، يرد إلى ذهنك صورة القرص الذي يشرق كل صباح ، ليملاً الأرض نورا ودفئا ، وهكذا .. السماء .. والأرض .. الجبال .. الكواكب .. النجوم .. الشجر .. كلها أسماء تدل على

(١) محمد متولى الشعراوى : "أسماء الله الحسنى" ، الجزء الأول ، مكتبة الشعراوى الإسلامية ، أخبار اليوم ، ١٩٩٣ .

مسمى بعينه ، وقد علم الحق سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها ، يقول الحق سبحانه وتعالى :
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكلمة كلها تفيد الإحاطة والشمول .

ويقول الشيخ الشعراوي في موضع آخر : الاسم نوع من أنواع العلم ، والعلم في اللغة هو أسم يعين مسماه - كما ذكرنا- بحيث إذا ذكر الاسم وردت صورة المسمى في الذهن ، وينقسم العلم إلى ثلاثة أقسام : (اسم ولقب وكنية) ، والاسم : هو ما يوضع على المسمى أول وضع ، بحيث إذا ذكر الاسم وردت صورة المسمى في الذهن ، أما اللقب فهو ما أشعر برفعة أو بضعة ، وكان وضعاً ثانياً فابنك الذي أحبته وأسميته أحمد قد تشعر مع الأيام أنه يتصف بالغباء فتطلق عليه اللفظ (الجهول) أو (جهلان) ، والكنية ما صدر بأب أو أم أو أخ أو أخت ، وكانت وضعاً ثانياً ، فابنك الذي سميته أحمد حينما يكبر وينجب ابناً يسميه (بكر) فيناديه الناس (أبا بكر) فإن هذه تصبح كنية له .

شرح الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي :

ويقول الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي في كتاب (بين علم آدم والعلم الحديث)^(١) : أن هذه الأسماء ما هي الا عناوين الأشياء وتعريفاتها وخصائصها ومنافعها ومضارها ، التي لها أهمية بالغة في مجال الخلافة في الأرض ، ولا تقوم الخلافة : أي سيادة العالم والسلطة على الكيانات إلا بهذا العلم الأساسي ، ولذلك علم الله تعالى الإنسان الأول هذا العلم الهام بعد مشروع استخلاف الإنسان علي الفور ، كما تظهر هذه التصورات بأول وهلة من النظر .

وتحت عنوان ما هي الأسماء يقول الندوي : الأسماء لغة ما تعرف به الأشياء ، أي ما يعرف ذوات الأشياء ، فقد صرح أهل اللغة أن اسم الشيء علامته ، قال أبو العباس : الاسم رسم وسمه توضع على الشيء تعرف به ، قال ابن سيده : والاسم اللفظ الموضوع على الجوهر والغرض لتفضيل به بعضه من بعض ، وقال الراغب الأصفهاني : (وعلم آدم الأسماء كلها) أي الألفاظ والمعاني مفرداتها ومركباتها ، لأن معرفة الأسماء لا تحصل الا بمعرفة المسمى ، وقد ذكر لسان العرب : قيل معناه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات .

ويقول العلامة شهاب الدين الألوسي : (والحق عندي ما عليه أهل الله تعالى ، وهو الذي يقتضيه منصب الخلافة، وهو أنها أسماء الأشياء علوية أو سفلية ، جوهرية أو عرضية).

(١) محمد شهاب الدين الندوي : "بين علم آدم والعلم الحديث" ، دعوة الحق ، إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة ، السنة السادسة ، العدد ٦١ ، ديسمبر ١٩٨٦ م.

ويرى الأستاذ الندوى أنه قد أحاط لفظ الأسماء جميع موجودات الكون وسائر ظواهر العالم من أعراضها وخصائصها وآثارها ، وهذا علم واسع المدى ، وبه يتم مصالحة الدين والدنيا ، ولخطورته سعد الإنسان بإعطاء هذا العلم فى أول يومه ، ويقول الأستاذ الندوى عن مفهوم الأسماء كلها أن هذا المفهوم يدل على أن جميع أشياء الكون وأنواع الحياة وأصنافها قد خلقت بكمالها قبل خلق آدم عليه السلام ، وبالتالي فإن الكرة الأرضية كانت متزينة ومشحونة بجميع أمتعة الحياة وحوائجها ، وخالية من كل نقص أو عيب لتكون مضافا للإنسان .

ويقول الأستاذ الندوى إن أول علم رزق الإنسان هو علم الأشياء ، ويعنى علم جميع موجودات الكون بخصائصها ومميزاتها ، ونكاد نعبر عنه بـ (علم الأسماء) حسب مصطلح القرآن الكريم ، وعلى كل ، وهذا هو العلم الحديث ، فإن العلم الحديث يبحث عن نفس هذه الأشياء وخواصها وظواهرها وفاعلياتها ، والتى عبر القرآن عن جميع هذه بلفظ معجز وهو (الأسماء) ، فإن علم الطبيعة (Physics) ، وعلم الكيمياء (Chemistry) ، وعلم الأحياء (Biology) ، وعلم الجيولوجيا (Geology) ، وعلم الأفلاك (Astronomy) وغير ذلك من العلوم الكونية إنما تلور حول الأشياء المادية (أى حول المسميات) وخواصها ونعوتها ومميزاتها ، فالعلم الحديث عبارة عن البحث والدراسة عن الأشياء الموجودة ، والمظاهر الكونية بتراكيبها وماهياتها وكيانها .

ويقول الشيخ محمد شفيق المفتى الأكبر لباكستان : (لابد لاستحقاق الخلافة فى الأرض من معرفة المخلوقات الأرضية وخصائصها وآثارها ، وما كانت طبيعة الملائكة حاملة لذلك) ويقول الأستاذ الجوهري : (فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء لا يستحق أن يكون خليفة عليها) .

ويقول الأستاذ الندوى أن الفرق بين آدم وأولاده فهو أن علم آدم كان موهوبا من الله تعالى ، أى كان هو العلم الذى أعطاه الله من غير كسب ومشقة ، بينما العلم الذى أعطى أبناء آدم فهو مكسوب وحافل بالتعب والعناء ، ولكن الله فطر الناس مجبولين باستعداد كسب هذا العلم لكى يسخروا أشياء الكون ويؤدوا مسئولياتهم تجاه خلافة الأرض.

ومصطلح (علم الأسماء) شامل واسع المدى ، يشمل جميع العلوم والفنون ، ونستطيع أن نعبر عنه فى المصطلح المعاصر بالعلم والتكنولوجيا (Science and Technology) ، لأن مفهوم العلم والتكنولوجيا هو معرفة المادة (Matter) واستخدام طاقاتها (Energies) ، مثل إعداد أنواع المنتجات والمركبات الكيميائية وشتى لوازم المدنية ، والانتفاع بالحرارة

والكهرباء بعد تذليلهما فى شتى مجالات الحياة البشرية ، فالعلم والتكنولوجيا لازمان للخلافة فى الأرض ، فهما توأمان لا تفرق بينهما أبداً .

ويرى الأستاذ الندوى أن علم الأسماء يكشف النظام الإلهى ، ويمهد الطريق لمعرفة الله تعالى ، وأنه يحيط بكل شىء علماً ، ولكن تعلم الأسماء يعنى ظواهر الأشياء فقط وليس داخلها وسرها فهذا من العلم اللدنى لله وحده .

الفصل الثانى

الأسماء

بعد أن عرضنا لتفسير آية تعليم الحق لآدم الأسماء كلها كما تناولها الأقدمون والمحدثون نحاول فى الصفحات التالية أن ننظر إلى الأسماء بمنظور فكرى متجرد ما استطعنا ، فى محاولة لإدراك هذا المفهوم الأساسى فى حياتنا ، والذى نتعايش معه كوجود أثيرى يشمل منطقنا وحديثنا وفكرنا، ومن المعلوم أن تناول الأساسيات البسيطة من أصعب الأمور، لأنك لا تملك مفاهيم أكثر أساسية منها لتردها إليها ، ولذا فأنت مرهون بعلاقاتها الأفقية المتشابكة مع أقرانها ، ولقد حاولت هنا مع الأسماء أن اتخيل اختفاء الأسماء فى حياتنا وبهذا تسلت مع العلاقات المتشابكة التى كانت مرتبطة بالأسماء واختفت معها ، وظللت أتابع اختفاء العلاقات حتى وجدتني قد أخفيت كل شيء ؟ .

تعالوا بنا نكافح فى فهم الأسماء .

تعريف علمى للاسم :

ما هو الاسم ؟ ، انظر إلى هذه الألفاظ الصوتية ، والتى يمكن أن تدون بصورة مقروءة، والتى نعربها عن شيء بعينه ، وقد نعربها عن قطاع كبير من الأشياء ، بينها صفات مشتركة ، فيمكن أن نطلق عليها لفظاً واحداً ، هو اسم لها .

نحن نقول : شجرة وجبل وماء ، وكم من الأشجار وأنواعها والجبال وتضاريسها والماء ومكوناته ، ولكننا نميز كل شيء باسمه بلا لبس أو غموض ، فالكتاب تعرفه كمجموعة من الأوراق المدون عليها معلومات معينة ، وقد يكون الكتاب كبيراً أو صغيراً ، ويحتوى صوراً أو رسوماً ، ذو غلاف سميك أو ملون ، وقد يكون فاخراً أو حتى ردىء الإخراج ، إنه الكتاب دائماً ، نميزة رغم تغير شكله ومحتواه تغيراً لانهائياً ، ولا توجد شجرتان وإن كانتا من نفس النوع منطبقتان تمام الإنطباق ، ولكننا نقول بكل اليسر : هذه شجرة ، برغم تعدد أشكالها ، وتنوع صفاتها وأعدادها الموجودة ، والمندثرة فى الأزمنة الماضية ، والمقدر لها أن تنبت فى مستقبل الدهر .

والإنسان نفسه لا يمكن أن يتشابه شخصان تمام التشابه ، بل هناك من فقد الذراع ، وهناك من زادت أصابعه واحداً ، وهناك القزم ومفرط الطول ، ولكننا نميز الإنسان دائماً عن غيره من المخلوقات بلا لبس أو غموض .

الأسماء تعبر عن أشياء ومعانى ، متغيرة تغيراً لانهائياً ، ولكنها تشترك معاً فى سمات عامة فنحن نقول : الحرية ، وقد تعنى أن نفتح للعصفور باب القفص الجميل الذى يسكنه ، وقد تعنى للثوار أن يحصلوا على حق الانتخاب والترشيح ، وقد تعنى خروج الغزاة الأجانب وعودتهم لبلادهم ، ونحن نقول : المرض ، وله أنواع كثيرة ، بعضها معلوم لنا ، وبعضها غير معلوم ، وبعضها يظهر حتى بتطور الزمان ، فكل اسم يحتوى تفاصيل لا نهائية .

وهكذا فالطبيعة متنوعة تنوعاً لانهائياً ، وكذلك الأفكار والمعانى ، ومن المعلوم أن مقدار ما نعرفه من الطبيعة وأنفسنا يمثل جزءاً غاية فى الضآلة بالنسبة لما هو موجود فى عالم المعرفة الشاسع ، بل إن المعرفة من سماتها اللازمة أنها متزايدة ، سابقة باستمرار ، فكلما علمنا الجديد كلما فتح هذا الجديد مجالاً جديداً للمعرفة ، حتى أننا كلما علمنا كلما أحسنا بجهلنا عن أشياء أخرى ظهرت لنا بهذه المعرفة ، ونحن ندرك أن المعرفة عالم لا نهائى .

الأسماء أسلوب لتمييز المعرفة ، والسعى فى جوانبها الفسيحة ، فهى تميز مفردات المعرفة ، وتعطيها تعبيراً يسيراً بسيطاً ، يجعلنا جميعاً نتعارف عليها كلما لفظنا أسماءها ، فالشجرة تعبر عن كائن له من الصفات والأنواع والأعداد والتصرف والوظيفة والقيمة وغيرها ما لا يمكن اعتباره إلا أنه لا نهائى المفردات ، ومع ذلك فبكل البساطة واليسر ودون استظهار هذه المفردات نقول : هذه شجرة ، ونقول : هذا غصن وهذه ورقة ، وكم من أشكال الأغصان والأوراق ، بل وأهم من ذلك : كم من الأحداث التى تحدث فى هذه الأوراق وهذه الأغصان من "نتح" و "تمثيل" و "احتراق" ، وكلها أسماء لتغيرات تحدث لمادة هذه المكونات للشجرة ؛ فالأسماء كأسلوب لتمييز مفردات المعرفة تشبه الشفرة ، التى عندما نذكرها تعنى كمية هائلة من المعلومات ، عبرنا عنها بلفظة غاية فى السهولة واليسر ، ولكنها تعبر عن وجود غاية فى التشابك والتعقيد والمعلومات اللانهائية .

إن المعجز فى إطلاق الأسماء أنها لا تستدعى من المتحدث بالأسماء أن يكون مستظهِراً لكمية المعلومات الهائلة التى يحتوئها كل اسم ، فالمتخصصون فقط هم الذين يعرفون تفاصيل العمليات الحيوية التى تحدث فى الأشجار مثلاً ، أو خواص الالكترود ، هذا ويقبل العلماء المتخصصون حقيقة أن معلوماتهم عن هذه المسميات ضئيلة للغاية .

هذه الأسماء اليسيرة لنا جميعاً تمكنا من التعبير عن مفردات الطبيعة ، رغم جهلنا بمعظم تفاصيلها ، ورغم ضعفنا عن الإحاطة بها ، ورغم ضعف أنبه العلماء المتخصصين عن سير أغوارها ، بل أن الذين يملكون قدراً من الحكمة يقررون أننا لن نحيط علماً بمفرد واحد من مفردات المعرفة فى مستقبل الزمان ، رغم ذلك كله نحن نطوى جوانب المعرفة فى لفظة يسيرة ، تجعلنا نقول بكل الثقة : زرعت هذه الشجرة ، هذه الشجرة ! ، أو تعلم كم المعرفة

الخاص بهذه الشجرة ؟ ، وهل تعلم ؛ إن كنت من العلماء الأفذاذ فى علم النبات ؛ ماذا يحدث للتربة وكيف تغذى هذه الشجرة ؟ سبحان الله ، إننى لو تجردت من معرفتى بالأسماء ؛ وهذا مستحيل ؛ فإن المنطق الغفل يستدعى أن يُعرف كل شئ عن هذا المفرد ، حتى يمكن أن نظويه طبعاً ونقول : إن هذه هى الشجرة ، وكأنك تعرفها ، كم نعرف من أمرها ؟ وكلما سألت علماً أتبه من سابقه سيقّر أن معرفتنا أكثر ضآلة مما قرره سابقه .

لكأن الاسم هو ذلك الصندوق الأسود الذى يحتوى الحقيقة اللانهائية ، ونحن نتناوله سهلاً يسيراً ، بل أننا نملك عدداً كبيراً من الأسماء ، ونسعى بها ، ونتعارف بها ، ويدرك كلُّ منا المقصود منها تماماً دون عناء ، وكل اسم يعبر عن وجود لانهائى من المعرفة ، نحن لا نعرفها ، ولكننا نقرر بلفظة الاسم أننا مجاهدون فى معرفة الجديد عن هذا المفرد ما حيننا ، إنه التعبير الذى علمه لنا علام الغيوب طويلاً لجوانب المعرفة اللانهائية فى لفظة غاية فى اليسر ، تذكيراً لنا بمواصلة السعى لمعرفة الجديد من أمره ، واعترافاً منا بجهلنا الدائم عن الإحاطة به .

الاسم يشتق من لحظة معرفة الناس بالمسمى ، وقد يشتق من صفة فى المسمى ، وقد يكون تعبيراً لم يشتق أساساً من المسمى (مادته أو صفاته) ، لكنه دالة كاملة فى المسمى كالدالة الرياضية التى تحتوى على تعبير رياضى لا يمت بصلة لما نعبر عنه بهذه الدالة ، فمثلاً لو عبرنا عن التيار الكهربى المتكرر بدالة جيئية فأين هذه العلاقة الرياضية من التيار الكهربى ، النير للظلام ، والمحرك للآلات العملاقة ، الباطش بمن يقترب منه ، ومع ذلك فإن الدارسين يستخدمون الدالة الجيئية لكى يدرسوا ويحققوا تقويم التيار الكهربى ، وعلاقته بالحركة الدورانية المكونة له بل وتأثيره فى الملفات والمغناطيسات البعيدة عنه والتى لا تتصل به مباشرة . فالاسم دائماً وجود عقلى بسيط يسير بينما ذات المسمى لها وجود عملاق مؤثر فعال ، بل نحن قد نتحكم فى هذا الوجود العملاق باسم لوجود أبسط منه ، فيخرج علينا من يفتخر "الزر الكهربى" ! .

فالاسم هو المدخل إلى السعى فى عالم المعرفة ، وذلك بالتعبير عن المعلومات اللانهائية، واحتوائها فى أقل مجهود فكرى ممكن يدل عليها مجتمعة رغم عدم الإحاطة بها ، وهو كما قدمنا يذكرنا بمواصلة الاستزادة من المعرفة ، كما أنه اعتراف منا بعدم الإحاطة بعلم الله ، الذى يحتويه هذا الاسم ، والاسم نفسه غاية فى اليسر والسهولة .

وبلغة الرياضيات يمكننا اعتبار الأسم أنه يتخطى ما لا نهاية له من المعلومات ليبر عنها بشكل بسيط فى أقل حيز عقلى يقترب من الصفر ، لكأن الاسم هو تعبير عن اللانهائية بالصفر ، أو هو أحتواء ما لا نهاية فى صفر .

نعم : أنه التلخيص الرباني العظيم ، الذى يعبر عن جوانب المعرفة الشاسعة بأقل الجهودات اليسيرة ، التلخيص الذى يعبر عن كل شئ باللاشئ ، إنه التبسيط المطلق ، الذى يمكننا من معرفة عدد كبير جداً من الأسماء بسهولة ويسر ، نسعى بها ، ونبحث فيها ، ونعرف الجديد عنها كل يوم ، ليست هذه الأسماء هى التى علمها الحق سبحانه وتعالى لآدم ، وعجز عنها الملائكة ، عجزوا عنها لأنهم يدركون عظمتها ، وكيف أنها مدخل إلى المعرفة ، وأنها تمكن الحكمة من أن تكون الحكم فى الأشياء وفى المعانى ، والحكمة لله وحده ، والعلم لله وحده ، وهذا ما تقرره الأسماء ذاتها ، فهى تعلن أننا لن نأتى على العلم الذى يحتوى اسم واحد ، وناهيك بعدد الأسماء .

ومن ذا الذى يتخيل تواصلاً وتفاهماً بين بنى الإنسان بدون ادراك مفهوم الأسماء والسعى به ، ومن ذا الذى يوحد ادراك الناس لشئ بعينه ، فليفظون نفس الصوت على نفس الشئ جميعهم ، وقد يكتبون أو بالأحرى يرسمون تمثيلاً ثابتاً له دائماً . جميعهم ، بل إن المطلوب أبعد من ذلك ، لأن اختلاف لغات الناس وبنية الأسماء نفسها لاينفى اتفاق مفهومها بين البشر كتعبير لتمييز الأشياء ، وتبدأ الترجمة - وهى اسم أيضاً - لتحقيق التناظر بين بنيات الأسماء .

الأسماء هى المدخل لإدراك الانفصال والانصال فى الوجود :-

الأسماء تعنى الانفصال فى مفردات الطبيعة ، أى أن هناك أشياء منفصلة متميزة ، يمكن أن تنشأ بينها علاقات ، ويخرج من علاقاتها أشياء وأتساء ، بل نقول : يخرج من علاقاتها أسماء ! .

من ميز الشجرة عن الأرض ، وصارت لها وجوداً منفرداً فى عقله ، فإنه من الممكن له أن يفكر فى غرسها ، ومن الممكن له أن يستخدمها لأغراضه بعد اقتلاعها ، وهو لن يصاب بالهلع الغريزى ، ولن يفقد البصيرة إذا وجدها تسقط أمامه ، مثلما يحدث مراراً وتكراراً لنفس الحيوان ، وذلك لأنه سماها ، وميزها عن غيرها من المسميات ، فصار تصرفها الفردى وارداً ، وصار فصلها ومحاولة استخدامها بمفردها ممكناً .

إن الأسماء تبصرنا بالتعدد فى الطبيعة وتقسيمها لمفردات ، وبالتالى فإن من يدرك الأسماء ، يمكنه فصل هذه الأسماء ، وتحديدتها ، وتمييزها عن بعضها ، ثم إن الإنسان يمكنه استعمال الأسماء المعنوية مثل قطع وتكسير وتهذيب ، فيمكنه ان يهذب الصخر فيصبح سلاحاً ، وهكذا يكون الإنسان قد انتقل من اسم الصخر إلى اسم السلاح باستخدام أسماء القطع والتكسير والتهذيب ، وهكذا يسعى الإنسان فى الأسماء متاحة اليه ، فيتمكن الإنسان البدائى من مواجهة أعدائه من الحيوانات الضارية باستخدام السلاح الصخرى ، ثم هو لا بد

سيكتشف اسم النار ، ويميزها مفرداً من مفردات الطبيعة ، ثم هو سيسعى للحصول على النار قاصداً ، بعد ان ميزها مصادفة ، ذلك أنها من مفردات الطبيعة ، وقد ميزها اسماً ، فلا بد وأن يتعامل معها ، وهكذا سيكتشف الاسم المعنوي لطهو الطعام ، بل هو سيكتشف انصهار حجر خاص سيسميه نحاساً غفلاً باستخدام النار، ثم هو سيكتشف سباكة النحاس والحديد لينتج أسلحة أمضى وأقوى ، وهكذا سيسعى خليفة الله في الأرض مبدعاً مضيفاً مقيماً للحضارة .

والانفصال مدخل لادراك الاتصال ، فمن ميز المفردات وفصلها أدرك توصيلها وتجميعها، وأننى له أن يدرك اتصالها دون أن يدرك انفصالها قبلاً ، وهنا يمكن الانسان أن يقوم بخلط الماء والتراب لانتاج الطين ، ويمكنه ادراك تجمد الطين إذا ترك ليحجم ، وهكذا سيصنع الانسان جداراً من هذا الطين ، ويكمّله إلى مسكن يقيه الحر والبرد ، نعم سيبدأ الانسان فى التعامل مع الوجود لصالحه .

فالاسم هو الوحدة الأساسية فى المعرفة ، وهناك لانهاية من الأسماء ، قد تحولت إلى مجموعة من الأصفار ، نستوعبها دون عناء ، فهذا شجر ومنه خشب ، وهذا حديد ومنه مسمار ومفاصل ، وهذا منشار صنعناه ليتمكننا من الاسم للمعنوى لقطع الأخشاب ، وهذا الغراء ، وهذا الشاكوش ، وهذا الطلاء ، ومن العلاقات المنظمة ، العلاقات الخلاقة بين هذه المفردات ، ينتج اسم فائدة ، اسم الدفء والهواء ، ينتج اسم الشباك ، وقس على ذلك ، كيف ستكون الدنيا عندما يسعى الإنسان بالأسماء .

تلك هى الأسماء فى بساطتها العملاقة ، تلك هى وحدات المعرفة التى تمكن الحكمة من إقامة علاقات بينها لانتاج اسماء جديدة ، ويالها من مفردات بسيطة فى عقل الانسان ، ولكنها تمكنه من الحركة والانتقال من أعماق المعرفة ، تمكنه أن يكون خلاقاً ، وأن يكون مبدعاً ، تمكنه أن يكون خليفة لله ، وهو يسعى مع الأسماء وبالأسماء ونحو الأسماء .

لقد وقفت ملياً أمام حيوان ، ينبش فى جذر شجرة ، ولكنه فجأة جرى خائفاً عندما سقطت الشجرة ، وولى بعيداً ، وكأن انفصال الشجرة عن التربة شىء غريب مخيف غير متوقع ، مع أنه حدث تقليدى عابر متكرر ، لايعنى أكثر من أن الشجرة شىء منفصل عن الأرض ، ويمكنه فصلها عن الأرض ، وكم خبر أطفالنا ذلك بعد بضع مرات ، وناهيك عن "الجاذبية" التى تسبب وقوع الأشياء ، أى تاريخ يلزم هذا الحيوان حتى يسير غور هذا الاسم العقلانى !، ولو تسلسلنا فى ادراك الانفصال والاتصال فى مفردات الوجود لأمكننا أن نميز شجراً معيناً ينضح سائلاً "صمغ" وجبلاً معيناً به حجر "مغناطيس" ، وسنظل نتابع هذا الادراك إلى أن نصل إلى السيارة والطائرة والصاروخ ، سبحانه الله .

أين قوة الإنسان من الفيل بل ومن الديناصور الذى يمكنه أن يقضى على الإنسان ، ولكن الإنسان صنع المسكن وقطع الأخشاب ، ولم يصنعه الفيل ، ولم يقطعها الديناصور ، والمسمار من الحديد ، والحديد من الخام يوضع فى الأفران ، والخام فى التراب ، والتراب يتعاش مع الكثير من الحيوانات ، بل إن بعض الحيوان يقضى حياته فى الخام الترابى ذاته ، ولم يتمكن الحيوان أن يصل إلى المسمار .

لقد أدرك الملائكة ؛ وهم خدام العرش ؛ عظمة السؤال حين قال لهم الحق : "انبتوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين" ، وقد يقول البعض : وما الصعوبة فى معرفة الأسماء ، انها بسيطة للغاية ، نعم إنها بسيطة للغاية ، بعد أن علمها الحق تبارك وتعالى لآدم ، ولكن فى هذا الزمن الأزلى لم تكن كذلك ، والملائكة لم يتعلموها ، فأدركوا عظمة السؤال ، وردوا ردهم الصادق : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

لا يدرك العظمة ولا يقدرها إلا من يفتقدها ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، لقد أدرك الملائكة ذلك حينما عرض عليهم الحق سبحانه وتعالى أمر الأسماء ، وهم خدام العرش والمنفذين لأوامر الحق فيه ، من قبل آدم وحتى يوم الدين ، فجبريل ينزل للرسول بكلمات الله لا يعوقه مكان ، وعزرائيل يقبض الأرواح بأمر الله ، ويضع نهاية الإنسان ، كل هذه المهمات الهائلة للملائكة ولا يعرفون الأسماء ، واعلموا أن لا علم لهم إلا ما علمهم العليم الحكيم ، وذلك لأن الأسماء منة من الله لآدم ، ليكون جديراً بخلافة الله فى الأرض ، ولكي يتمكن هو وذريته من تطويع الطبيعة والتغير فيها ، وهذا ليس متاحاً للملائكة خدام العرش ، الذين يخدمون الحق سبحانه وتعالى دون أن يكون لهم أن يغيروا خلق الله .

التعليم الربانى العظيم :

كان تعليم الأسماء تعليماً عظيماً ، لأنه تعليم ربانى خالص ، فهو ليس بمعناه الضيق : تحفيظ لأسماء بعينها استظهرها آدم ، ريثما يتمكن من القائتها على جمهرة الملائكة ، بل أنه تعليم ربانى وما أعظم التعليم الربانى القويم ، لقد علمه الله مفهوم الاسم ، علمه الله استخدام الأسماء وإدراك الأسماء والسعى بالأسماء أسلوباً ومنطقاً للتعبير عن الحقيقة ومعاملة الوجود وفهمه وتطويره ، حباه الله بعلم الأسماء ، يعرفها ويغيرها ويمحوها ويقدها قداً كلما عن عليه جديد ، علمه الله مفهوم الأسماء ودورها ومعناها ، فصارت فى روعه وسيلة طيبة يسعى بها ليستحق خلافة الله فى الأرض .

نعم : إنه تعليم للمفهوم ، فصار تعليماً مفهوماً لا مستظهراً ، تعليماً مستوعباً نافعا ، فهو التعليم الربانى الذى أعجز الملائكة ، وكان برهاناً من الله للملائكة على استحقاق آدم لخلافة الله فى الأرض .

وتبياناً لهذا المعنى يقول ابن كثير فى تفسيره :

"قال الذى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح وعن ابن عباس وعن مره وعن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أخرج إبليس من الجنة ، وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحيشاً ليس له زوج يسكن اليه ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقتها الله من ضلعه فسألها ماأنت قالت : امرأة قال : ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلى . قالت الملائكة ينظرون مابلغ من علمه : ما اسمها يا آدم قال : حواء ؟ قال : إنها خلقت من شىء حى " ، وفى دائرة المعارف الأمريكية^(١) تحت بند حواء "Eve" أن أصلها "life" أى الحياة .

فهذه القصة توضح أن الملائكة يدركون معنى التعليم الربانى لآدم ، بأنه فى قدرة إطلاق الأسماء ، ولذا نجد آدم يسمى زوجه حواء ، ثم يعلى سبب تسميتها بأنها خلقت من شىء حى أى من ضلعه ، أى أنه استوعب التعليم الربانى وصار قادراً على إطلاق الأسماء والسعى بها .

إن الأسماء فى عقولنا نحن بنى آدم سهلة وبسيطة للغاية ، ولكن حقيقتها أنها عظيمة ومفهومها عملاق للغاية ، وبمقدار قوتها وعظمتها بمقدار سهولتها ويسرها فى عقولنا . نعم إنه التعليم الربانى العظيم ، وكيف تظن تعليم الحق لآدم ؟ ، إنه تعليم ربانى جعل الأسماء العظيمة المعقدة سهلة يسيرة ، لقد اختار الحق سبحانه وتعالى مفهوم الأسماء العظيمة ليقدمه لآدم سائغاً سهلاً يسيراً حتى يتمكن من المضى فى عالم الحقيقة مدركاً فاهماً مستوعباً مقيماً للحضارة ومحمللاً بالأمانة ليستحق خلافة الله فى الأرض ، لقد خص الحق آدم بهذا القبس من علمه اللدنى بل وعلمه إياه فصار آدم قادراً على التعامل مع الوجود متسقاً معه .

(ج) تفسير الأسماء بالأسماء : -

من الثابت - كما قدمنا - أن معلومات الإنسان عن أى مفرد فى الموجودات سواء كانت مادية أو معنوية هى معلومات ضئيلة بالنسبة للممكن معرفة ، والإنسان يتعلم كل يوم الجديد فى كل اتجاهات المعرفة ، فالأسماء التى نعرفها كلها مازلنا نحتاج لنعرف المزيد عنها ، ولن نتوقف المعرفة عن اسم واحد ، ونحن لكى نفهم المزيد عن اسم معين نحن فى الحقيقة نفعل ذلك بأن ندرك أسماء أخرى .

لنضرب لذلك مثلاً باكتشاف "الالكترون" ، فحين اكتشفه طومسون عام ١٨٩٧ والبحث لا يتوقف عن معرفة المزيد عن هذا الالكترون ، وقد سماه طومسون الكترون أى صغير الكهرباء ، فهو المسئول عن التوصيل الكهربى فى الأسلاك المعدنية ، وقد ترجمت

(1) New Standard Encyclopedia , Standard Educational Corporation , Chicage , (1976).

الكلمة إلى العربية باسم "كهيرب" أى صغير الكهرباء ، ولكن بمرور الوقت لم تثبت هذه الترجمة ، واستخدمت الترجمة الحرفية ، وذلك لعمق تعبيرها فى اللغة التى تم اكتشافه بها ، ولفهم الإلكترون بدأ البحث العلمى يشق طريقة لأسماء جديدة مثل "الشحنة السالبة" فالإلكترون مشحون بشحنة سالبة ، تمحذبة نحو القطب الموجب ، بدأ الإنسان يفهم "المدارات" التى يدور فيها الإلكترون داخل الذرة ، وهذه المدارات لها "مستويات طاقة" ، وهذه المستويات لها درجات "تشبع" وظهرت "الأرقام الكمية" ، التى تدل على وضع الإلكترون فى الذرة ، وبدأ العلماء تطبيق الميكانيكا الكمية على الإلكترون ، وذلك لأن الإلكترون لا يتصرف طبقا للميكانيكا التقليدية التى قدمها نيوتن .

ولو أخذنا أى موضوع لو جدنا أنه كلما ارتقت معلوماتنا فيه كلما زادت الأسماء المرتبطة بهذا الموضوع ، فكل اسم نعرفه يجعلنا نتعرف على مفردات جديدة ، قد تكون مادية أو عقلانية، هذه المفردات نطلق عليها أسماء لنميزها ونحددها ، ونعلن وجودها على مائدة البحث وهذه الأسماء الجديدة بدورها تجعلنا نميز مفردات جديدة ما نلبث أن نسميها وهكذا ، وفى تسلسلنا خلال الأسماء قد نعود لأسماء ميزناها من قبل ، وهكذا تتشابه الأسماء معا بأسلوب عميق ، تحكمه الحكمة الإلهية فى الخلق ، مكونة نسيج المعرفة المتشابه ، الذى يستحيل على كائن أن يتحرك فى ادراك هذا النسيج بدون التسليح بمفهوم الأسماء ، واستعمالها ، والسعى بها .

وعلى ذلك فالمعرفة البشرية هى مجموعة هائلة من الأسماء ، متشابكة معا ، ونحن نتحرك فيما بينها ، فنعرف الجديد عن الأسماء بمعرفة الأسماء المحيطة بها فتفسر الأسماء بعضها ، وكلما تحركنا فى نسيج المعرفة كلما أدركنا أن هناك أسماء ناقصة يلزمنا تمييزها ، فالمعرفة عالم شاسع منطلق ، مفرداته هى الأسماء .

إدراك الأسماء هو الأساس الذى قام عليه العلم البشرى : -

إن قدرة الإنسان على التعامل مع الأسماء كانت الأصل فى اعظم منجزات الإنسان ، وهو العلم ، الذى مكن الإنسان من التدخل فى الطبيعة لصالحه .

وهو ما نعبر عنه بأن التعليم الربانى لآدم بعلم الأسماء كان قبسا من العلم الربانى العظيم ، لتفضيل آدم بخلافة الله فى الأرض ، ويكون قادراً على أن يتدخل فى مكونات الوجود ، مغيراً فيه ، فأمكنه أن ينجز منجزات ملء السمع والبصر نافعة لحياته بل لترفه .

وكما قدمنا فإن الأسماء قد أرسيت صفة الانفصال فى الطبيعة ، وهذا الانفصال مدخل أساسى لإدراك اتصالها ، فالأسماء تعنى الاختلاف والتمييز بين مفردات الأشياء والمعانى ، وهذا التمييز مكن الإنسان من المضى فى عالم المعرفة بأسس مختلفة عن أى كائن آخر من الحيوان ، فقد استتبع إدراك التمييز القدرة على اتباع مسالك عقلانية فى ترتيب

مكونات المعرفة ، جعلت خطوة الإنسان على درب الحقيقة ، وليست فى هباء التاثر بدون معنى .

ومن المبادئ الأساسية فى العلوم التجريبية مبدأ التحليل ، وهذا المبدأ كان المدخل الأساسى لتفهم العلماء للطبيعة والتدخل فيها ، والتحليل بمعناه العام هو تحويل الوجود المادى أو المعنوى إلى مجموعة من الجزئيات المكونة ، لكل منهم اسم بذاته ، ويمكن التعامل مع هذه الجزئيات بمفردها دون أى ارتباط بالوجود الكلى الأصيل ، فنفهم كل جزئية على حدة ، ونعبر عنها تعبيراً كاملاً ، ثم بعد ذلك نقوم بتجميع هذه الجُمْل معا ، وننتهى إلى فقرة عامة معبرة ، كاملة بقدر ماحللنا وبقدر ما جمعنا ، قد نطلق عليها "النظرية" أو "القانون" أو ما شئنا من الأسماء المعبرة عن العلاقات المنطقية ، ونحن نتحرك فى عالم المعرفة بهذه الأسماء ، وقد ننتهى فى لحظة إلى اسم جديد لمعنى أو شيئاً مادياً لم نصفه فى تحليلنا ، فما نلبث أن نفك مكونات فقرتنا المفيدة ونحللها راجعين فنصف الاسم الذى اكتشفناه ، ثم نعود إلى تجميع فقرتنا لتصبح أكثر إفادة ، بعدها قد يقوم بناء يقى الحر والبرد ، بل وفى كثير من الأحيان يعطى الترف والفضل ، وقد ينقى الماء زلالاً لأجسامنا وطعامنا ، وقد ينساب الحديد المنصهر من الخام الترابى ، وقد نصبح فى أفريقيا ونمسي فى آسيا ، وقد ينطق الجماد يخبرنا بأخبار البلاد والعباد ، بل ويطنرنا بالشعر والغناء ، وقد تتحدث الأم الحنون بكل الشجون لولدها الذى يعد عنها آلاف الأميال ، ثم قل ما شاء لك الله أن تقول من منجزات موجوده ، تصرخ بأسمائها وأسماء مكوناتها ، وترك المتخصصين يتناظرون بأسماء عقلانية تعبر عن وجودها ، من "تصميم" و"تطوير" و"تقويم" ، وأسماء تدل على مكوناتها من "موتور" و"مكثف" و"ملف" ، بل و"سلك" و"صامولة" .

إن قصة اكتشاف تركيب الماء من الهيدروجين والأكسوجين توضح لنا كفاح الإنسان من أجل المعرفة ، كان العلامة شادويك فى حفلة صاخبة مع زمرة من أقرانه علماء الكيمياء فى هذا العصر ، وكعادة العلماء فى حفلاتهم أن يتندروا ويقضوا وقتاً طيباً من خلال عمل علمى حديث ، يمثل اكتشافاً يضيف لعظمة علومهم ومنجزاتهم ، وكانت أن يحدثوا فرقة لغاز الهيدروجين التى تحدث دويهاً هائلاً ، يمثل احتفالاً وسمراً خاصاً لمنجزاتهم ، فى معرفة التفاعل المدوى الشديد الذى يحدث للهيدروجين فى جو من الأكسوجين ، ولاحظ شادويك تساقط قطرات شفافة بعد هذه الفرقة المدوية ، واستقر شكلها فى رأسه وتمكنت من ادراكه أنها ناتج سائل لهذه الغازات المدوية ! ، وترك الحفل وعاد إلى معمله ليجرى تجاربه ، ويجمع القطرات الشفافة التى بدأ يفطن أنها الماء واستوفى تجاربه على خواص السائل الناتج ، واستوثق انه الماء فخرج على رفاقه باكتشافه الجلل ، ليعلن أن سائل الماء مكون فى دخليته من غازى الهيدروجين والأكسوجين ، وأن نتاج الحريق الهائل ماء ! .

لو لم يكن مستقراً في ادراك شادويك أن الأشياء مكونة من جزئيات متميزة ، ولو لم يكن شادويك يدرك صفات السائل وتميزه عندما يراه ، ولو لم يكن شادويك يدرك ارتباط سقوط السائل بعد كل احتراق ، لو لم يكن شادويك يدرك هذا التميز وهذا الاختلاف بين السائل ومكونات الحريق لما أمكنه أن يدرك تركيب الماء ، لقد رأى شادويك في لوهه جميعاً لمكونات الماء فخرج علينا بتحليلاً لمكونات الماء ، ولولا ادراكه هذا ما عرفه وما عرفناه .

ولعل من أهم المنجزات العلمية هو دراسة تركيب المادة من خلال النظرية الذرية ، ولم تبدأ نظرية الذرة علمياً إلا من نظرية رذرفورد الذرية ، إلا أن المفهوم الفكري والفلسفي لكون المادة مكونة من دقائق صغيرة منفصلة فهو قديم منذ عصر بداية الفلسفة في الأغريق ، فقد أيقن الإنسان صفة الانفصال في الطبيعة وأنها المدخل إلى الاتصال فيها ، فأصبحت المادة مكونة من وحدات صغيرة أطلق عليها اسم "الذرة" ، وبهذا أصبح هناك وجوداً مُعرّفاً باسمه مجهولاً في مكنونه مجالاً للتناول والتغاضي عنه حيناً ريثما يستقر على درب الحقيقة إن كان من مفرداتها ، وتم ذلك بتجربة قذف غلالة الذهب الشهيرة لرذرفورد ، فقامت النظرية الذرية ، وما زالت تتحدد وتشكل حجراً أساسياً في العلم الحديث ، ولا أحسب أننا الممنا بمكون الذرة ، فما زال المجهول أكثر مما نعرف ، ومع هذا تحدد اسمها منذ زمن بعيد ، وصارت وجوداً معنوياً ثم مادياً وتارة موجياً ، واندمج الوجود المادى والموجى ، وفى كل هذا هي الذرة ، وجود على مائدة البحث وكل يفسر ويقترح ويجرب ويستنتج فى مجهول ، لا أحسب أنه سيصل يوماً إلى الحقيقة النهائية ، فنحن بكل اليسر طوينا جوانب هذا المجهول اللامنتهى فى كلمة واحدة صارت تميزاً وتحديداً لوجود نحن نسلم بجهلنا به ، ومحاولتنا فك أسرارهِ واحدة تلو الأخرى من عالم معرفة لانهاى مرتبط بهذا الوجود ، ولكنه صار لنا "كاملاً" فى تمييزه وتقديمه لمجال البحث وقتما سميناه . ذلك هو مفهوم الاسم ومفعوله ، وهب أننا لانسمى ، ولا نميز مانسمى ، ولانتعامل بالأسماء ، فأية ذرة ستبحث ! وكيف ستجمع مكوناتها من الكترون وبروتون ونيوترون وبوزيترون وغيرها ، وأية وجود معنوى فى عقولنا سيكون لهذه الذرة .

الأسماء تحتوى الحقيقة الغامضة فى الوجود :-

إذا كانت المعرفة البشرية هي كمية هائلة من الأسماء - أسماء لأشياء وأسماء لمعانى - فإن معاناة الإنسان فى الوجود ومحاولاته فى ادراك حكمة الوجود وسننه تتمثل فى تنسيق هذه الأسماء وترتيبها بالنسبة لبعضها ، فالإنسان كالفنان الذى يملك أعداداً هائلة من الألوان . . . هي الأسماء ... متاحة اليه بكل الدرجات وبكل الانطلاق

"كلها" ، وهو يرسم لوحة إنسانية من هذه الألوان، التي أعطاها له الله ، يرسم بضميره واختياره طريقه بين الخير والشر .

والإنسان دائما يبحث فى مكنون الأسماء ودخيلتها ، فلا يلبث أن يجد نفسه أمام مجهولات عنه ، فيسميها ويغلفها فى هذا الصندوق الأسود المجهول صندوق الاسم ريثما يتمكن عاجلا أو آجلا من أن يفض مكنونه ويغلف محتوياته فى أسماء جديدة .
إنه يتحرك دائما فى الأسماء .

وعلى هذا فالطبيعة تبدو كحلقة مغلقة من الأسماء تتحرك فيها دائما بالأسماء ، فمفردات الاسم ومكنونه كما هبة من نوع تفصيلى مختلف عن معنى الاسم هو سر هذا الوجود ، وهو من العلم اللدنى لله وحده .

وكتشبيه لهذا للمعنى نقول أن ملح الطعام يعطى مذاقاً لطعامنا وتأثيراً مستساعاً لشهيتنا ، بينما يقرر الكيميائيون فى معاملهم المجهزة بالأنابيب والمواد والميكروسكوبات والأشعة أن هذا الاسم المستساغ هو فى الحقيقة جميع كيميائى لاسمين هما الكلور والصوديوم ، وعلى هذا أطلقوا عليه بلغة الكيمياء معبرين عن ماهيته باسم كلوريد الصوديوم، ورغم أن ملح الطعام يتكون من الكلور والصوديوم فله خواص تختلف جذريا عن الكلور وعن الصوديوم .

الكلور غاز سام لونه أصفر يميل للخضرة ! والصوديوم فلز قلوى نشط يفور فى الماء منتجاً حرارة شديدة وأبخرة هيدروجينية قد تنتج فرقة هائلة فى الهواء إن لم نحسن جمعها بمعزل عن الهواء ، والصوديوم يتفاعل أيضا مع الهواء ، ولو وضعت قطعة صوديوم على يدك ستحدث تأثيراً قلوياً ضاراً بل وقاتلاً لأنسجة الجسم .

أى أنه غاز سام يتفاعل مع قلوى ضار بأنسجة الجسم فينتج لنا ملح الطعام الذى يضيف مذاقا وشهية ، أى أن صفات المجموع لا تساوى مجموع الصفات ، ومكونات الاسم ليست بالضرورة شطرا من الاسم ، فالأسماء التفصيلية هى وجود منفصل له كيان الاسم بكل معناه تماما كالاسم الكل .

الكل هنا مختلف عن الجزء ، وقد يشابهه فى قليل أو كثير ولكن ليست هناك علاقة مباشرة بالضرورة ، بل العلاقة غير مباشرة فى إطارها العام ، ولها صفة الامتزاج وتكوين الجديد .

نعم .. إنها الأسماء ، هبة خالق الأرض والسماء ، تحمل فى طياتها قبس من الخلق هبة لخليفة الله فى الأرض، حتى يسعى مسئولاً حاكماً بأمر الله فى الطبيعة التى خلقها الله.

وأين شفافية الزجاج من عتامة السليكات (وهي الرمل) الداخلة في تركيبة ، والألوان كما يثبت العلم هي ترددات موجية معينة ، لكل لون تردده الذى يؤثر على عين الإنسان فيدرك هذا اللون الجميل ، فالوردة الحمراء الجميلة ليست حمراء ولكن الجزئيات المكونة لأوراقها مرتبة ترتيبا محسوبا يعكس ترددات محددة لموجات الضوء الساقط عليها ، فتحدث التأثير اللوني الأحمر عندما تراها العين ، فهذا الذى نسميه أحمر إن هو إلا ترتيب معين ومسافات معينة لكتل ضئيلة متراسة ، فالاحمرار القانى الجميل أصبح مسافات ونظام وأرقام ، وشتان بين الوجودين .

والأرض مثلا لها قطر وكتلة وحجم وحرارة ومغناطيسية ، ثم هي تتصرف مع المواد التى على ظهرها بأسلوب محدد ، فهى تجذب هذه المواد اليها ، وهو ما نعبر عنه بالجاذبية ، ولأن هذا التصرف مميز محدد فقد فصل مفهوم الجاذبية عن الأرض ، وصار إسما يعبر عن وجود معنى قائم بذاته ، ولم تعد الجاذبية تفاصيل لإسم الأرض فقط ، بل أمكن دراسة جاذبية القمر والشمس وغيرها من الأجرام السماوية ، وصارت الجاذبية مبحثا عاما يرتبط بالأجرام السماوية أيا كانت ، وأصبحت الجاذبية مجهولا يحتاج لإدراك تفاصيله للإجابة على التساؤلات الأساسية : كم ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ .

ولا أحسب أن علما ما أحاط بإسم ما فى حدود مجال ما ، فلإن كانت الجاذبية تحكمها هذا القانون الذى قدمه نيوتن ، والذى تحسنت صورته فيما بعد ، فبقى أن نسأل : لماذا ؟ وكيف ؟ ومهما قيل من أمر هذا الجسيم الصغير والمسمى بالجراڤيتون ، والذى تشعه كل المواد فى الكون والذى يقيم التجاذب بينها كما لو كان حبلا يجذب الأجسام للأجرام السماوية فإنه تبقى تساؤلات كثيرة عن كيفية انبعاث هذا الجسيم وخواصه .

وهكذا أطللنا من خلال الأرض على الجاذبية وعلى الجراڤيتون وفى الحقيقة فإننا سنظل على عدد من الأسماء ، بل إننا نقول إننا من خلال إسم واحد يلزمنا أن نظل على كل الأسماء أن أردنا فهما لهذا الإسم الأصلي ! .

أى أن مفردات الإسم اللازمة لفهمه هي أسماء فى عالم المعرفة الفسيح ، فنحن نخرج من إسم لإسم ، ونميز تفاصيل وخواص الأسماء بأسماء أخرى ، فالشجرة فى بدائية فهما صارت جذرا وساقا وفروعا وأوراقا ، ثم ما لبثت أن صارت خلايا وعصارات ، وارتبطت حواكمها بالخاصة الشعرية والتمثيل الضوئى ، وصارت مبحثا لا نحسب أنه ستأتى لحظة معرفة صادقة نقول بأننا أتينا على الشجرة فأدركناها وعرفناها ! ، فلكى نعرف الشجرة معرفة صادقة كاملة لابد أن نخيط بالكيمياء والفيزياء تماما ، ونماء الشجرة مرتبط بالرياح والمناخ وظواهر الطبيعة ، وجذرها مرتبط بتراكيب الأرض ومكوناتها ، وتوارث

صفات الشجرة يرتبط بعلاقات رياضية لترتيب مكونات خلايا الوراثة فيها ، وبقاء الشجرة يرتبط بتأثرها بالطاقة الشمسية وطاقة الرياح بل وحتى الطاقة الكهربائية .

وهكذا فلكى نفهم الشجرة ونعرفها تماماً علينا أن نفهم علوم الكيمياء والفيزياء والرياضيات والطاقة والحياة و ... ، بل وعلوم الفكر والفن والفلسفة والحق والخير والجمال، فكم من ألوان فى الشجر وكم من جمال فى بهائه ، وكم من معنى فى تنسيقه ، وكم من فكر فى تحديد أماكن زراعته ، وكم من هدف فى عمل مصدات منه لتيارات الصحراء وكم .. وكم ..

وعلى هذا فلكى نعرف الشجرة علينا أن نعرف العلم كله .

فلكى نفك مكنون اسم واحد علينا أن نفك مكنون جميع الأسماء ، لكأنها بلغة الرياضة هى مالا نهاية من المعادلات كل منهم يحتوى على مالا نهاية من الجاهيل ، وكل اسم يحتوى مكنون وحوالك وجوده من أسماء لانهاية ، وكل اسم مرتبط ببقية الأسماء جميعا ، لا ترقى معرفتنا به إلا ببقية الأسماء ، فلكى نعرف هذا الوجود علينا أن نعرف كل أسماء هذا الوجود .

ماذا لو لم يعرف الإنسان الأسماء ؟ :-

هب أننا لا نسمى ولا نغز ما نسمى ولا نتعامل بأسماء ، فأننى لنا أن نتعارف على مبحث يلزمنا سراًغواره مثل "الذرة" و"الالكترون" ، أى ذرة سنبحث وأى "جاذبية" سندرك ، وكيف نضع على منضدة حديثنا مجالاً للمعرفة أو مبحثاً للمناقشة ، ومن ذا الذى يمكنه أن يخبرنا بوجود الاستعداد لأزمة "الطاقة" أو خطر "الفيضان" ، أنى وجود معنى سيكون فى عقولنا لهذه الأسماء التى نعرفها الآن .

إننا لو تصورنا أننا لا نعرف الأسماء ، وليس لها وجود فى عالمنا ، فإننا سنرى الطبيعة على انها كُلى كامل بل وشىء معنى واحد ، لانملك أمر استغلالها والتدخل فيها إلا إذا فهمناها كلها دفعة واحدة وبغير مفردات ، وسنسعى فيها طلباً لغريزة البقاء بدون تأثير عقلانى فيها ، ستصبح كلها اسم الأسماء الذى لا نعرفه ، ولا نملك أمر التركيز على بعض منها لا يتصل مباشرة بغريزة البقاء ، كتراب معين هو "خام" لحديد أو نبات معين يحتوى "دواء" لمرض ، ولأن الله حباناً بالأسماء فنحن قد عرفنا الخام واستخلصنا منه الحديد وعرفنا النباتات الطبية واستخلصنا منها الدواء ، وعرفنا الكثير ، لتطوير حياتنا وتحسين ظروف معيشتنا بما أعطانا الله من فضل تعليم الأسماء .

ولو أننا لانعرف الأسماء وسعينا فى الأرض كوجود واحد يعلو ادراكنا باسم واحد نجهله، فلن نكون سوى متحركين بالغريزة المباشرة ، لا نملك إدراكاً خلاقاً أو طريقاً عقلانياً لمتطلبات وجودنا ، ستصبح الغريزة هى الأساس ، ونصبح كالحيوان .

الفصل الثالث

نظرات فى العلوم التجريبية ودور الأسماء فيها

لست هنا قاصداً لأن أعرض لمنهج العلوم التجريبية ، وأسلوب الاستقراء فيها ، ولكنى أحاول التجول فى هذه العلوم ، لألتقط بعضاً من دور الأسماء فيها ، وأحاول الوقوف على المواطن التى ظهرت فيها قيمة الأسماء وأثرها فى هذه العلوم .

بين الاسم والتعريف :

مرت الحضارة الاغريقية بعصر السفسطائيين الذين أجادوا الحديث المتشدد المبهر دون التركيز على المحتوى المقصود ، ولما جاء سقراط ثار على هذا الوضع ، وحاوّر الناس فى أروقة أثينا ، ونادى بمنطقية الحديث وتحديد المفاهيم ، وقدم للبشرية مفهوم التعريف ، وهو ما يعنى الاتفاق على المفاهيم وتوصيفها بشكل محدد والالتزام بهذا التوصيف دائماً .

ولاشك أن العلوم الحديثة كلها تأخذ بمفهوم التعريف ، فتبدأ بالتعريف لمفرداتها حتى تتوحد لغة الحديث ، فيفهم الدارس المقصود من العبارات فهماً محدداً لا يختلف فيه أحد .

وإذا نظرنا فيما بين الاسم والتعريف لوجدنا أن التعريف هو المحاكاة المبسطة للاسم ، فالتعريف يلتزم بكم معين من المعلومات نسردها عن المَعْرِف ، بينما الاسم يطلق على المسمى الحقيقى فى الواقع بكل تفاصيله وتشابكاته مع غيره من المسميات ، والتعريف يسمى واقعاً خيالياً لا واقعاً حقيقياً ، فنحن نأخذ من الواقع الحقيقى شطراً يسيراً معلوماً فنضعه تعريفاً ، وبهذا نكون قد عبرنا عن حقيقة مبتورة غير ممثلة للواقع ، فتصبح خيالاً بدائياً يمثل مبلغ علمنا عن ذات المسمى .

ولنضرب لذلك مثلاً بتعريف الالكترتون فنقول :

"الالكترتون هو كل جسيم سالب الكهربية يدور حول نواة الذرة ويمكن للذرة أن تفقده أو تكتسبه أثناء التفاعل مع ذرات أخرى أو تحت تأثير الطاقة" ، هذا التعريف أحصى قدرًا من المعلومات التى نعرفها عن الالكترتون ولكنه لم يذكر كل المعلومات ، ذلك أن علمنا بالالكترتون نفسه محدوداً ، ومبلغ علمنا أنه لا يوجد جسيم سالب آخر يدور حول نواة الذرة .

ولذا فنحن نتحدث عن الكترتون خاص بنا ، كما عرفناه وخبرناه ، وقد يحدث أن يتغير التعريف بمرور الزمن ، إذا تحدثت معلوماتنا وزاد فهمنا ، غير أننا بالتعريفات نصنع عالماً من المسميات الصناعية الخاصة التى تحاكي الوجود ، فنقيم علاقات المنطق بين

مفرداتها، حتى يمكننا أن نستفيد من معلوماتنا عن هذه المفردات أقصى استفادة ، وحتى يمكن أن نصمم التجربة التي تمكننا من فهم الجديد عن هذه المعرفات .

ولاشك أن ابتكار التعريف كان له دور فعال في تقدم العلوم الطبيعية والإنسانية على السواء ، فقد ساهم في تحديد المفاهيم والخواص ، وجعل خطوات البحث أكثر سرعة وأمضى تأثيراً .

ولو أننا كنا لا نعرف الأسماء ، فأى إدراك سيمكننا من الأخذ بأسلوب التعريف ، ولن يكون لهذا التعريف وجوداً في عقولنا ، لأن الأصل الذى بنى عليه غير موجود .

تقسيم العلوم التجريبية :

من الصعب علي دارس ما أن يتجول في العلوم التجريبية كل علي حدة ، فلم تعد العلوم التجريبية مواضيعاً متباعدة كل يعالج شأنه ، فهي ممتزجة امتزاجاً ، ولعلنا نقول أن التقسيم الذى وضعه العلماء لهذه العلوم لم يكن أساساً لاختلافها عن بعضها وتباعد مباحثها وانفصالها ، ولكنه كان تبسيطاً لعظم منطقتها وعمق علاقاتها ، فكان من الصعب تناولها مجتمعة في نسيجها المتشابك .

ولعلنا نذكر جاليليو جاليلي حين قدم مبحثه الشهير "علمين جديدين" كان يقصد تبسيط حدة هذا العمق والتشعب الذى انتهجته الفلسفة ، فأراد قسمتها إلى علوم تجريبية وعلوم فكرية إنسانية ، فقد كانت الفلسفة تبحث في كل اتجاه رغبة في لم شمل الحقيقة ، وصاروا ضحاً أن الحقيقة بحر واسع وأنى لفيلسوف ما أن يجمع هذه الشتات المتشعبة معا : فكانت صيحة التقسيم اعترافاً بعظم المسؤولية وتبياناً لعمق الحكمة ، حتى تتضافر الجهود في جمع مفرداتها .

ولعلنا نتناول قضية تقسيم العلوم التجريبية على أنه تقسيم لا تصنيف ، لأن العلوم التجريبية فصلت بنودها متداخلة دونما تصل لتصنيف محدد لأبواب الحقائق العملية ، فمن الصعب أن تضع فاصلاً بين علوم الكيمياء وعلوم الفيزياء المتداخلة ، أو أن نضع علوم الحيوان منفصلة عن علوم النبات ، أو حتى نضع علوم الجيولوجيا بعيدة عن الفيزياء والكيمياء ، وصار التتريح علماً يدرس الكائنات الحية كلها . وعلوم الخلية تتناول الأجسام الحية بأسس عامة ، وهي تتناول الكيمياء والفيزياء في دراسة التغيرات التى تحدث في الخلايا، بل إن التقسيم الأصلي لعلوم تجريبية وعلوم فكرية تاريخياً وضع الرياضيات في قائمة العلوم الفكرية ولا أحسب دارساً للكيمياء أو الفيزياء اليوم إلا وألم بالرياضيات أكثر مما يلزم . ربما دارس علم النفس أو علم الاجتماع ، بل هذه العلوم الاجتماعية الأخيرة صارت تعتمد على التجارب العملية والاحصاء والرياضيات في الآونة الأخيرة ، وصارت كل العلوم آتياً

كانت تستقى من بعضها منطق تناولها ودراسة مفرداتها ، وكان التقسيم الذى أفرزته الفلسفة صار يحاول لم شتاته عودا للفلسفة من جديد ادراكاً لكلية الحقيقة وتضافر مكوناتها فى نسيج الحكمة الكاملة التى تحمل عمق التفكير من كل نوع .

قسم الإنسان العلوم لعظم مسئولية فهمها دفعة واحدة ، فعرف لها مفردات منفصلة سماً بما أعطاه الله من فضل إطلاق الأسماء ، فكان قادراً على أن يدرك شيئاً من الحقيقة المخففة ، وخير لك أن تحمل إنتاج حقلك على أحمال من أن تحمله دفعة واحدة فلا تقوى دابتك وربما سقط حملك وتلف ، وكان لزاماً على الإنسان فى بحثه عن الحقيقة أن يوزع مجهود الفهم على عدد كبير من الناس فاستخدم التعليم الربانى العظيم ، وابتكر التخصص ، فكان علماء الكيمياء وعلماء الفيزياء وعلماء الحياة وغيرها ، هذا المدخل الإنسانى يضطلع به خليفة الخالق حتى يتمكن لما خلق له فيتفكر فى خلق الله ويعرف الله فى حكمه خلقه ، وهى حكمة عظيمة لا تعرف بغير جهاد وتفكر وعناء ، وهى الأسماء سهلة يسيرة لديه ، يسعى بها فى بحر الحكمة العظيم ، وكم عرفنا وكم أبخزنا بعد هذا التقسيم ، عرفنا الكثير وأبخزنا الكثير لحاجتنا بل ولزفنا ، لأن الله خلق الكون حقيقة خصبة شاسعة ، يكفى إدراك القليل لأبحار الكثير ، ولولا معرفتنا بالأسماء وسعينا بها ما تمكنا من إدراك المفردات الأولية ، ولا تمكن علماء التجربة العملية من الاعتكاف لدراسة هبة يسيرة من قانون المادة ، فيخرجون علينا بما ينقل حياتنا نقلات واسعة ، تحقق لنا خلافة الخالق العظيم .

ونظرة على تقسيم العلوم التجريبية - قسمها الإنسان تقسيماً محدوداً ، كما يكسر الحجر الكبير إلى حصوات ، وفيما يبدو لنا فإن المعرفة التى نخرج بها من الحقيقة الجمعية تزيد بفهم جديد على فهم المفردات الصغيرة ، لأن ارتباط الحقائق تحكمه حقائق جديدة ، ولعلنا نقرر أن فهم الإنسان يعتمد على حجم الحقيقة التى يدرسها ، وعمق قدرته على إدراك علاقات أجزائها التفصيلية كبعد جديد لادراكه لها ، تماماً مثل الجسم فى الفراغ ذى الثلاثة أبعاد واختلافه عن الشكل المسطح فى بعدين ، ومن عظمة الأسماء أنها تحقق التعريف بأشياء لها تفاصيل وصفات كثيرة ، فهى لا تفتت المفهوم الذى تناوله ، بل على العكس تعبر عن حجم عقلاى له محتوى هائل من المعلومات ، ولذا فالإنسان عندما يقسم الحقيقة الجسمية إلى مفردات مسماة فإن طبيعة الأسماء ذاتها تفرض وجوداً للمفردات لها حجم عقلاى مفيد، يمكن بتناولها أن تعطى نتائج نافعة، ولذا فيمكننا أن نقول أن فهمنا للحكمة يعتمد على المقدار النهائى لكل مفردة منها ، وكلما كانت المفردات كبيرة ، وكانت قابلة للفهم والتناول كلما كان الفرق بينها وبين الحقيقة الجمعية الأصلية أقل ، وكلما كان فرق معرفتنا للمفردات عن المعرفة المطلقة للحقيقة الجمعية يسيراً. والأسماء تحمل صفة اللانهاية فى صفات مسمياتها ولذا فهى تحقق تماسك المعرفة وعدم تفتيتها وتأكيد منطقية تفاصيلها .

مقاومة الطبيعة للمعرفة :

لا شك أن العلوم التجريبية قد حققت رصيذاً ملحوظاً من المعرفة فى القرنين الأخيرين، واتضح من تراكم هذه المعرفة بعض الخصائص المرتبطة بها ، فالمادة فى حجمها وكتلتها المعتادة التى فى متناول حياة الانسان تتبع قوانين يمكن للإنسان الكشف عنها ودراستها وفهمها ، ولكن المادة ان كبرت لحدود كبيرة وتباعدت مسافاتنا لحدود كونية فإنها تتبع قوانين أخرى أكثر عمومية ، ومن الناحية الأخرى فالمادة إن صغرت لكميات ضئيلة ولمسافات متناهية فإنها تتبع قوانين أخرى يحكمها قلة التحديد ، وتتحول لاحتمالات ويكون القياس المعملى صعباً وغير دقيق وتتحول نتائج التجارب العملية إلى احتمالات منفردة ، وتوضيحا لهذه النقطة فإن الأجسام الدقيقة مثل الإلكترون مثلاً تحكم صفاته قانون عدم التحديد الذى قدمه هيزنبرج ، وهو يقدر الخطأ فى قياس سرعة الإلكترون ومكانه فى حالة ما إذا كانت وسائل القياس متناهية الدقة ، ومبدأ عدم التحديد فى قياسات الأجسام الصغيرة يعتبر من الأسس الكونية وهذا يجعلنا نقرر أن الحقيقة تأبى أن تعرف ، فهى تقاوم وسائل قياسها ودراستها ، وتزداد مقاومتها كلما تعمقنا فى فهمها ومحاولة سبر أغوارها ، فكلما تعمقنا فى الاتجاه الجسيم للدراسة الأجرام السماوية والابعاد الشاسعة أو تعمقنا فى الاتجاه الدقيق لدراسة الجسيمات الأولية التى تتكون منها المادة تصعب الدراسة ويزيد الغموض ، ويتضح ضحالة فهمنا للمادة فى ظروفها المعتادة التى فى متناولنا ، حتى صار فى إدراك العلماء أن الحقيقة واحدة ، ولكنها عظيمة العمق بعيدة الغور ، تشمل المادة فى كل أحوالها جسيمة أو معتادة أو دقيقة ، ولكننا نرى صورتها الخاصة فى الحالة المعتادة ، حيث لا تعمل مقوماتها الجسيمة وحيث لا تعمل مقوماتها الدقيقة ، نعم إن الحقيقة نسيج واحد هائل العمق والمعنى ، تحتاج لعناء وجهاد وتفكير ، وقد وجهنا القرآن الكريم للتفكير أى التفكير العميق : ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار﴾ (سورة آل عمران - الآية ١٩١) .

هذا التوحد والعمق فى تصرف المادة يتضح يوماً بعد يوم ، منذ أن قرر العلم الحديث أن العالم الطبيعى عالم ميكانيكى رياضى ، يحكمه النظام والقياس والمنطق ، وفيما نعتقد أن الله علم آدم الأسماء باعتبارها الأسلوب المتوافق مع طبيعة الوجود العميق المتوحد الممتنع ، والأسماء عميقة متوحدة ممتنعة ، الأسماء عميقة لأنها تعبر عن معلومات لا نهائية تدل على وجود بذاته بطريقة يسيرة غاية فى البساطة ، وهى متوحدة لأنها دائماً لفظ معبر مهما كان شخص المعبر عنه ، سواء أكان مادياً أو معنوياً وهى ممتنعة لأنها لو لم يعلمها الله لآدم ما تعلمها ، وما تمكن منها ، فهى قمة السهل وقمة الإمتناع ، وهذا هو الإعجاز الذى قالت عنه الملائكة ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ .

أى أن الوسيلة التى أعطاها الله لنا - وهى الأسماء - وسيلة متوافقة مع المهمة التى نحن مقدمون عليها ، مهمة الخلافة فى الأرض ، فالأرض وما عليها وما حولها من خلق الله ، والأسماء علمها من عند الله ، وهما هدف ووسيلة ، متوافقان لأن كليهما من عند الله ، خلقهما ليتوافقا مع سعى الإنسان ، ليتمكن من المهمة التى خلق لها .

منجزات العلم ودور الأسماء فيها :

الأسماء هى الوحدة الأساسية فى مفردات الفكر البشرى التى تمكنه من السعى فى عالم المعرفة واعياً مجدداً ، مستخلفاً لله فى الأرض ، ولو استعرضنا منجزات الإنسان فى الأرض لوجدنا أنها ناطقة بخلافته لله ، فهو قد استخرج كنوز الأرض ، ووظفها لصالحه ، فصنع مسكنه وملبسه ووسائل انتقاله وما يقيه حاجته بل وما يحقق رفاهيته ، ولو دققنا فى هذه المنجزات علنا نستشرف شيئاً من أسلوب عمل الإنسان وتدخله فى الطبيعة لوجدنا أنه يقسم المواد إلى مفردات معرفة اليه بأسمائها ، لكل مفرد منها خصائصه الخاصة ، وهو يعيد مزج هذه المفردات ليحصل على خواص جديدة ، قد تختلف تماماً عن خواص المكونات .

الإنسان يرى حوله الماء والتراب والاحجار والهواء ، ثم يرى النباتات والحيوانات ، ثم يرفع رأسه للسماء ليرى الشمس والقمر والنجوم ، بدأ الإنسان بتمييز هذه المفردات عن بعضها ، والتعامل معها بخواصها ، ثم ما لبث أن عرف مفردات تفصيلية لكل واحدة منها ، فلم تعد الاحجار ولم يعد التراب كمكون لجسم الأرض شيئاً واحداً ، بل راح يميز المعادن والخامات وأنواع الاحجار الجيرية والرملية والجرانيتية والخام ، بل والاحجار الكريمة ، تعددت المفردات وصار لكل مفرد من المفردات اسمه الخاص ، وراح الإنسان يبحث عن المفردات التفصيلية التى تكون هذه المفردات الكبيرة ، وهكذا فرضت فكرة الذرة نفسها كمفرد أولى تتكون منه المواد ، وجاءت نظرية دالتن عام ١٨١٠ لتحدث عن الذرة والجزئى ، وكيف تتكون المواد المركبة من العناصر الأساسية ، وهى نفس النظرية التى تحدث عنها أرسطو فى فلسفته عن المادة ، وكيف أنها تتكون من مفرد أساسى سماه الذرة ، يكمن فيه سر هذا التباين العظيم فى خواص المواد ، وأصبح الهواء مكوناً من نيتروجين وأكسوجين وبعضاً من ثانى أكسيد الكربون وربما الهيدروجين ومكونات أخرى ضئيلة ، وصارت الشمس والقمر والنجوم فى إدراك الإنسان مكونة من نفس المفردات التى تتكون المواد الأخرى من أشجار وأحجار وماء ، وبدأ الإنسان يفكر فى تكوين مفردات جديدة من إقامة التفاعل بين ذرات مختلفة ، قد لا تكون الطبيعة قد أقامت هذا التفاعل ، أو قدمت هذا الاتحاد فى تكوينها الغفل ، وراح يقدم لنفسه سواداً جديدة ، ينتقى منها ذات الخواص المفيدة ، فأنج البلاستيك والبنزين والزجاج والورق والسبائك وغيرها ، فالإنسان قد فصل المكونات وأعاد تركيبها لحسابه ، ليحصل على خواص نافعة جديدة ، تصلح لتطبيقات

مفيدة لحياته ، وهذه القدرة على الفك والتركيب . هذه القدرة على التحليل والتجميع تعتمد على خاصية وصفها الله فى المادة . حتى تكون سهلة طيعة فى يد الانسان . لكى يستخرها الانسان لصالحه . هذه الخاصية يمكننا أن نضعها كما يلى :

"صفات المجموع لا تساوى مجموع الصفات" .

فإذا أقمنا اتحاداً بين المفردات أ ، ب ، جـ ، فإن المفرد الناتج لا يشترط أن تكون خواصه هى مجموع خواص أ ، ب ، جـ ، بل ربما يخالفها تماماً . فهو فى الحقيقة يحمل صفات جديدة لا تمت بصلة لصفات المكونات .

والإتحاد بين المفردات يختلف أسلوبه فهو قد يكون جمعا ميكانيكيا أو مزجياً أو تفاعلياً .

الجمع الميكانيكى :

يجمع قطع الخشب ، المأخوذة من الشجر ، مع المسامير وهو الحديد المستخلص من الأرض ، والغراء المستخلص من بعض أنواع الشجر ينتج الشباك والباب والسرير والدولاب والكرسى و... وغيرها ، هذه المفردات اتصلت ببعضها بنظام مقصود ، لتكون منها جميعاً مفيداً، يقدم عملاً أساسياً لا يمكن أن تقوم مكوناته منفردة بهذا العمل .

الجمع المزجى :

فى هذا الجمع تختلط المكونات تماماً فلا يبقى المسامير بخصائصه كاملة ليقوم بعمل محدد، بل تمتزج المواد معا ، فيمتزج الدقيق والماء لتتج العجين ، ويمتزج الماء والبن والسكر لتتج القهوة ، ولعل هذه الأمثلة تقليدية مباشرة ، فهناك السبائك التى تصنع من مزج مصامير الفلزات لتكون سبائك ذات خواص جديدة فالحديد النقى المنصهر إذا مزج بما يساوى ١٨٪ من مصهور الكروم وما يساوى ٨٪ من مصهور النيكل تتكون سبيكة الصلب الذى لا يصدأ "ستينلس ستيل" المستعمل فى المطابخ ، والذى لا يكون الصدأ البنى للحديد العادى ، وهو صدأ فضلا عن أنه يلى المكون الحديدى فهو ضار بالانسان ، وهو الذى جعل الانسان لا يستخدم الحديد العادى فى الطهى وصار يستخدم هذه السبيكة المكونة من الحديد والكروم والنيكل لصنع أدوات طهيه .

فإذا كان فى الجمع الميكانيكى تكون الأجسام منفصلة عن بعضها تماماً ولكنها موضوعة فى مكانها المحاد لعمل محدد فإنه فى الجمع المزجى تمتزج ذرات المكونات ، ولكن كل ذرة منفصلة عن الذرات الأخرى ، فيتكون منهم كل جديد يحمل خواصاً جديدة ، وهذا يجعلنا نتفهم الجمع التفاعلى الذى تمتزج فيه الذرات نفسها ، وتكون جزيئات مكونة من الذرات المتفاعلة ، وفى هذا النوع من الجمع للمادة تنتج خواص جديدة تماماً كما سيتضح فى البند التالى .

الجمع التفاعلي :

وفيه تتحد المكونات الدقيقة "الذرات أو الجزيئات" لتكوين جزيئات جديدة ، ذات صفات جديدة ، تختلف عن صفات المكونات الأصلية ، فمثلاً ملح الطعام يتكون جزيئه من ذرة الصوديوم وذرة الكلور ، ولذا فهو يسمى في علم الكيمياء باسم كلوريد الصوديوم ، نسبة لتكوينه من الصوديوم والكلور ، والصوديوم فلز نشط يتفاعل مع الماء والهواء ، وينتج مركبات قلوية ضارة بجسم الإنسان ، فهو يكون الصودا الكاوية مع الماء ، أما الكلور فهو غاز سام ، ومع ذلك فتفاعل الصوديوم مع الكلور ينتج كلوريد الصوديوم ، وهو ملح الطعام الذي نستخدمه في طعامنا يومياً ، وليس له صفات الصوديوم ولا صفات الكلور .

ولعلنا نقول بأسلوب الدين الإسلامي الخفيف أن الإنسان خليفة للخالق ، ولذا فهو صانع في أرض الله يستخرج من ذات المواد مواداً جديدة في خواصها ووظيفتها ، ولكنها ليست جديدة على الأرض . بمنطق الخلق من العدم ، بل هي جديدة على الأرض . بمنطق خواصها ووظيفتها الجديدة ، يا لها من هبة وهبها الخالق لخليفته ليستحق الاستخلاف وليمثل للحساب فيما قدمت يدها ، وهل هو استغل النار لخير الناس أم لضررهم وهل استغل هذه المواد وهذه المصنوعات التي مكّنه ربه منها لصالحه وخيره أم لشره وطمعه ونفسه الآثمة .

فالإنسان يعيد ترتيب الأشياء ، يعيد تنظيم المكونات ، فيخرج على الدنيا بالجديد . والجديد قد تستخدمه خيراً كاله أو شراً كاله أو بين بين ، وعليه أن يوظفه بعقله وضميره ونفسه ، فهو قد يدمر أخيه الإنسان بما صنع من بارود وبما صنع من مفرقات ، وهو قد يمهّد أرضه بذات المصنوعات ، لا شك أن العقل الواعي يفرق بين سبيل الخير والشر ، ويعتبر حرية الإنسان التي وهبها الله له لتسخير الطبيعة كيف شاء برهاناً على حسابه يوم القيامة ، حيث لا يستوى الذي سلك الخير مع الذي سلك الشر .

قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ . (سورة آل عمران الآية ١١٤) .

وعلى هذا يمكننا أن نقول ان الإنسان أقام معظم حضارته المادية معتمداً على إعادة ترتيب مكونات المادة ليحصل على صفات جديدة ، ينتقى منها ما يصلح لحياته ووجوده ، وحول هذا الإطار أقام الإنسان مفردات عقلانية تعبر عن هذا الترتيب ، وهذه المفردات العقلانية هي مجموعة من الأسماء يعبر بها عن تدخله في الطبيعة ، فهو يسمى العناصر الأساسية ، وهو يميز بين طرق ترتيبها ونواتجها بأسماء يطلقها ، تعرفه بالموجودات المادية والمفاهيم العقلانية ، أي أننا يمكننا أن نقول أن الإنسان يسعى بالأسماء أسماء الأشياء والمعاني ، بل يتعامل مع الأسماء على عموميتها دلالة على المفاهيم العقلية ، فمدخل فصل المادة

لمكونات هو سعى لإطلاق الأسماء ، وهو اكتشاف لجوانب من حكمة الله في خلقه ، وترتيب المكونات هو تكوين لصفات يعرفها بذاتها وشخصيتها ، فنعم الإنسان بنعمة النطق الذى يعبر عن الأشياء والمعانى ، دون استحضارها فصار ناطقاً بالمنطق متحدثاً بالحقيقة باحثاً عنها فى الموجودات والمفاهيم .

نعم إن التيار الكهربى القاتل ينير مصباح الكهرباء ، ويرسل صوت المذياع بالأخبار - والأحوال ، وهو نفسه التيار الكهربى الذى عرفه الإنسان وميزه كحركة لهذه الأجسام الصغيرة المسماة بالالكترونات داخل الموصلات الكهربائية ، متحركاً فى رحلة موجهة من قطب سالب إلى قطب موجب ، أدرك الإنسان وميز أن التيار الكهربى هو مسمى مركب لحركة مرتبطة بالالكترونات بين قطب سالب وقطب موجب ، وكلها مسميات ممتزجة فى نسيج المعرفة بحكمة الله فى خلقه ، فالإنسان لم يصنع الالكترونات ولكنه حضّره ، أو قل إنه أحضره من مسكنه داخل الذرة ، ففصله منها فوجده يتحرك بين الأقطاب كصفة أساسية فيه خلقها له الله ، فلما اكتشفها الإنسان اعتبره مشحوناً بشحنة سالبة ، لأنه يجذب للشحنة الموجبة، ولما عرف الإنسان الشحنة الكهربائية وجدها نوعان لا ثالث لهما ، فسماهما الشحنة السالبة والشحنة الموجبة ، ووجد خصائص كل شحنة ثابتة كما هى كلما قصدها وهذه من حكم الله فى خلقه أن يجعل الصفات الأساسية ثابتة مع الزمن ، فكلما انتزعنا الكتروناً وجدناه سالباً ، وما أعظم هذه الهبة الإلهية التى تمكن الإنسان من إطلاق صفة السالبة على الالكترونات فى كل الأحوال ، إنه النظام الذى يمكن الإنسان من إعادة الترتيب ، وفى كل مرة يقيم نفس التجربة تنتج نفس النتيجة ، فأصبح التوحد أساساً لسلوك المادة ، فهى لا تتصرف بهوى بل هى تتصرف بخصائص واحدة ثابتة ، تمكن الإنسان من تسخيرها وتحويلها لصالحه ، وأنى لهذه المادة أن تكون بهذه الخصيصة لتوجد بها فى الكون دون معنى ، أو دون قيمة ، فلا يجعل الله لها خليفة يسعى فيها مكتشفاً لها ، متفكراً فى حكمتها مستخراً لها . إن هذه الخصوبة الغفلة فى الكون تفقد دورها ومبرر وجودها إن لم يكن لها دور ، وما أعظم أن يكون دورها هو التفكير فى حكمة خالقها .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران الآية ١٩١) .

وهذا التيار الكهربى ينتج من الأقطاب ، فإذا وضعت النحاس فى محلول كبريتات النحاس ، ووضعت الزنك فى محلول كبريتات الزنك ، وفصلت بين المحلولين بقطعة من الفخار تسمح باتصال المحلولين دون امتزاجهما اكتسب الزنك صفة القطب السالب ، واكتسب النحاس صفة القطب الموجب ، فإذا وصلت بينهما بسلك موصل للكهرباء سرى التيار الكهربى بينهما ، ولا شك أن فارادى ومن بعده دانيال عندما اكتشفا هذه الحقيقة

كان طبيعياً عليهما أن يضعاً نصب عينيهما اسمان أساسيان مرتبطان بهذه التجربة ألا وهما "الكهرباء" و"الكيمياء"، وخرج علينا فاراداي بقوانينه الأساسية في علاقة الكهرباء بالكيمياء، وكيف يمكن أن نحصل على الكهرباء من جراء حدوث التفاعل الكيميائي إن كان التفاعل تلقائياً، وكيف أننا بالكهرباء يمكننا أن نقيم التفاعل الكيميائي الذي لا يحدث تلقائياً فننتج نواتج معينة، لا تنتج بمفردها إن تركت المواد المتفاعلة معاً بدون كهرباء، وكان لابد من استخدام اسم "الطاقة" للتعبير عن هذا المعنى البديع، فصارت قوانين فاراداي هي قوانين تحويل الطاقة الكهربائية إلى طاقة كيميائية والعكس، وبدأ العلماء منذ قديم فاراداي قوانينه عام ١٨٢٤ يبحثون في عقلانية هذا التحول بين الطاقة الكيميائية والطاقة الكهربائية، وعكف دانيال على تفسير أسباب انفصال الكترولون ذرة الزنك عند غمسه في محلول كبريتات الزنك، وأسباب الشحنة المرجبة على النحاس المغموس في كبريتات النحاس، مما يجذب الإلكترون المنفصل من الزنك فيتحرك إليه عبر الموصل، وأثبتت أبحاث دانيال وكل من تناول الموضوع من بعده أن وجود الزنك في كبريتات الزنك هو المسئول عن انفصال الكترولونات الزنك وأن وجود النحاس في كبريتات النحاس هو المسئول عن جذب الإلكترونات إلى النحاس، وبهذا صار واضحاً أن ترتيب المواد واتصالها ببعضها ينتج عنه صفات خاصة، وفي هذه الحالة يتكون التيار الكهربى من هذا الترتيب المقصود. وقد استتبع ذلك دراسة قطبية العناصر في محاليل أملاحها، فتتجت السلسلة الكهروكيميائية نسبة للتحول بين الطاقة الكهربائية والكيميائية، ومن هذه السلسلة يمكن حساب فرق الجهد بين قطبين لموقعهما في السلسلة الكهروكيميائية، وهكذا أصبحت الكهرباء تولد من ترتيب وضع بعض المواد ملامسة لمواد أخرى، وهذا يؤكد أن أهم ما يقوم به الإنسان في تسخير المواد الكون هو إعادة ترتيب وضع المواد مع بعضها، بعد أن فصلها إلى عناصر ومركبات ومعادن وخامات.

وقد ينشأ التيار الكهربى من دوران ملف بين قطبي مغناطيس كما حدث عند اختراع الدينامو وقد اخترعه فاراداي أيضاً عام ١٨٣١. وهذا يشير إلى أن الطاقة المغناطيسية والطاقة الحركية تفاعلاً معاً لإنتاج طاقة كهربية، وهكذا فإن ترتيب وضع الملف والمغناطيس والحركة بينهما هو نظام مقصود ينتج عنه نتيجة مقصودة هي تولد التيار الكهربى، وصار معلوماً أن الطاقة المغناطيسية والطاقة الحركية تنتج قوة قادرة على تسير الإلكترونات في اتجاه محدد، عبر عنه فلمنج بقاعدة اليد اليمنى، وصار مفهوماً من اتجاه حركة الإلكترونات أن القطب السالب هو الذى تبدأ منه الحركة وأن القطب الموجب هو الذى تنتهى إليه الحركة.

وهكذا أصبح التيار الكهربى باختلاف وسائل توليده هو شىء واحد عبارة عن تحرر الالكترونات من ذراتها وحركتها من قطب سالب إلى قطب موجب ، وبهذا صار له هذا التعريف المحدد بحركة الالكترونات فى الموصلات ، وكما قدمنا أن التعريف هو التعبير البشرى المناظر للأسماء ، وهو يدل على شىء بعينه بصرف النظر عن مسببات تكوينه ، وهذا الثبات فى ماهية الأشياء والمفاهيم هو الهبة التى وضعها الله فى المادة حسى يتمكن الإنسان من تسخيرها ، وإدراكها وجوداً محدداً ، ينتج نفس النتيجة بنفس المسببات ، فهذا العالم العقلانى هو عالم أسماء محددة بذاتها ، يعبر الاسم فيها عن متناه فى صفاته ولكنه هو دائماً يحمل جوهرأ واحداً رغم اختلاف ذروفه وأسلوب تواجده ، وقد تكون معلوماتنا عنه غير كاملة ولم ندرك من أمره إلا النزر اليسير ، ومع ذلك فنحن نعرفه باسمه وندركه عندما نسمع اسمه ، وفى نفس الوقت لا نلم بكل أمره .

ولعل الفلك والظاهرة الكونية هى أكثر المواضيع التى تغيرت فكرة الانسان عنها على مر الزمن ، بل أن اكتشاف الإنسان لحقيقة الكون تقدم كل يوم جديداً يمثل تغييراً كبيراً لفكرة الانسان عن الطبيعة ، وهذه الاكتشافات الفلكية مثلت قفزات مفاجئة هائلة لم تخل من احداث اضطرابات فكرية للإنسان ، فماذا نظن لو عاصرنا جاليليو وهو يفاجئنا برأيه الرهيب أن الأرض كروية وتدور حول الشمس ، وقد كان علماء ما قبل الميلاد يتخيلون الأرض كدائرة مغطاة بالسماء على شكل نصف كرة ، ومن تحرك على الأرض فى اتجاه الأفق فإنه بعد عناء السفر سيصل إلى نقطة التقاء السماء "الأفق" بالأرض ، وكان العلماء يجهزون المعاول والآلات الحادة ، حتى يمكنهم كسر السماء ، ليروا ماذا وراءها من أرواح وشياطين ، ومن ذا الذى يحمل الأرض وسمائها ومصاييحها المدلاة على شكل النجوم ، هذا الشكل للأرض والسماء كان يمثل المعرفة الفلكية فى الماضى . ورغم أن جاليليو يعد امتداداً لأعمال أولية سابقة لكوبرينكس وكبلر . قد قلب هذا المفهوم رأساً على عقب ، وأصاب رجال الدين والزنادقة بالاضطراب على السواء إلا أن الأسماء الأساسية فى الفلك كالأرض والشمس والقمر والنجوم وخلافه كما هى ، لأنها مفهوم عقلانى لوجود لا يمكن أن ندعى يوماً أننا ألمنا به ، بل نعرف عنه الجديد كل يوم ، وربما ينقلب مفهومنا عنه تماماً ، وهذه هى عظمة الأسماء فى كونها وسيلة أساسية حباها الله الانسان لكى يتفكر بها ويسعى بها ، ومن عظمة الأسماء أنها ليست جامدة مفروضة ، بل هى وسيلة تفكر ومراجعة وإدراك فما أحسب أن الحكمة الإلهية مدركة فى لحظتها ، وما أوجب أن نتفكر ونعيد النظر فى كل شىء إن أردنا سبيلاً للحكمة ، ولذا فالأسماء قد تطلق ثم يتضح أن المفهوم الذى أطلق عليه الاسم منفصلاً بذاته ، فتميزه بمكوناته ، بل وربما نجد أن المفهوم الذى أطلق عليه الاسم لا يوجد أساساً بهذه الصورة ، فنراجع إدراكنا به ، وقد نلغى اسمه ، فالإنسان كما قدمنا علمه

ربه الأسماء لكي يسعى بها مفهوماً معبراً وأسلوباً ناطقاً لإدراكه لمخلوقات الله ، وقد حدث في التاريخ أن افترض العلماء وجود وسط سمي "الأثير" ، توجد فيه المادة والطاقة على أساس أنه يملأ الفضاء المطلق ، تنسب إليه الحركة والتغيرات ولكن تجربة ميكلسون ومورلي فشلت تماماً في دراسة نسبية حركة الضوء بالنسبة للأثير ، مما اضطر الفيلسوف الفرنسي "بيونكارا" أن يقترح عدم وجود الأثير ، وأن سرعة الضوء هي الثابت العام في الكون ، وهذا مما كون حجر الأساس في النظرية النسبية الخاصة والعامة ، التي قدمها ألبرت آينشتاين ، والتي اعتمدت على عدم وجود الأثير وثبات سرعة الضوء ، وهذه النظرية بدورها فتحت آفاقاً جديدة ، فقدمت لأول مرة أن جوهر المادة والطاقة شيء واحد ، وأن كلا منهما يتحول للأخر ، وهما صورتان من صور الوجود.

هذه هي الأسماء ، تعبير مطلق للأشياء والمفاهيم وسيلة سهلة يدركها الإنسان عالماً كان أو جاهلاً حكيماً كان أو سفيهاً أيضاً كان أو ملوناً ، يطلقها ويتعارف عليها ويسعى بها ، وقد يغير اسم هذا الشيء ، وقد يلغى اسم هذا الشيء ، وقد يميز تفاصيل جديدة لهذا الشيء ، نطلق عليها الجديد من الأسماء ، وفي كل لغة للإنسان في أرجاء الأرض تطلق الاسماء ، وتبدل الأسماء وتعديل ، ففي الجمع اللغوي توضع الأسماء وتناقش وتبدل وتعديل ، فنقول أتحدث إليه في المسرة ، ونقول أيضاً نتلفنه ، وهذا المذياع أو الحاكى أو الراديو ، وهذا التلفاز قد يصبح التلفزيون وهكذا ، أنه التعليم الرباني العظيم ، ليس جامداً مفروضاً محفوظاً ، ليس لك فيه خيار أو قرار ، ولكنه مفهوم وإدراك ، تعليم رباني غمك أسرته ، نصوغه ونقده ونراجعه ، ألسنا تلاميذاً للعلام فلا غرو أن نكون مالكين لأمر الأسماء خلفاء بها معبرين بها عن الحكمة والمعنى في مخلوقات الله ، هذه الحكمة الواسعة التي تسعى ونكد ونتفكر اقترباً من قطرة في محيطها ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ .

أي إنسان هذا الذي يقترب من بحر الحكمة العظيم فلا يكون مسلحاً بعلم رباني ، هذا العلم لا بد وأن يملك الإنسان أمره ، يتدخل فيه ويصوغه ويعدله حتى يكون قادراً على الاقتراب من بحر الحكمة الإلهية العظيمة ، فأت إن ذهبت إلى اختبار وظيفته ما لا بد وأن تراجع كل ما تعلمت في تخصصك ، بل إن النابهين سيوصونك بالتدريب على حل بعض المشاكل غير التقليدية التي تحتاج لتصرف وقرار مبني على العلم والمعرفة ، عندما يكون الموقف جديداً غير موجود في مراجع المعرفة بتفاصيله .

أنت تفعل ذلك عندما تقف أمام المدير الإنسان ، فبماذا يسلحك ربك لكي تقترب من بحر حكمته العظيم . إنها الأسماء الخالصة لنا مالكين لها نستخدمها بكل المقاييس ، وكل التمكن لأن حكمة الله لا يكفيها البحر مداداً ولو جئنا بمثله مدداً .

مستويات المعرفة :

تقدمت العلوم التجريبية فى القرنين الأخيرين تقدماً ملحوظاً ، وقدمت خدمات تكنولوجية واضحة ، أضافت للفكر الإنسانى مفردات جديدة ، والأهم من ذلك أنها فتحت آفاقاً للبحث فى اتجاهات عديدة ، جعلت البحث يضيف كل يوم الجديد ، ولعل أهم ما يميز العلم التجريبي أنه يبحث فى حقيقة الموجودات كما هى فى الواقع ، وهذا يؤكد فى كل يوم - فيما نرى - أن الحقيقة الموجودة أغرب من الخيال الذى يسوقه تصورنا ، فالحقيقة الفعلية هى قبس من حكمة الله فى الخلق ، أما الخيال فهو امتداد لحقيقة معلومة ، نطورها بعلمنا القديم ، وأين خيالنا الذى يكرر الحقيقة السابقة فى علمنا بأسلوبنا الإنسانى من الخلق الإلهى العظيم ؟ .

فالطبيعة مكيفة فى دخیلتها لأن تعطي جديداً وأن تعطي مفيداً ، وأ، تكون أكثر معنى لمن يملك تنسيق محتوياتها تنسيقاً متعقلاً ، بل وتصبح خطراً وتدميراً إذا نسقت جهلاً أو شراً مغرضاً ، فهى تحمل فى بنائها خصوبة دورها ومقومات سلطانها ، وهى موجودة مادياً ، وموجودة بتوافق سننها المعنوية الحاكمة لمتغيراتها ، وهذا الوجود يحمل مقومات الاكتمال واللانهاية .

وهذا ما نعبر عنه بأن الطبيعة موجودة كمادة ، وموجودة كقوانين تحكم تغيرات هذه المادة ، وهناك تناسق وتكامل بين موادها وبين قوانينها المتوافقة التى تحكم وجودها وتغيرها ، ومادتها موجودة محسوسة كائنة فى الفراغ ، وقوانينها المتوافقة موجودة بمعناها ونتائج عملها فى تغير مادتها ، موجودة فى عالم الأفكا والمعانى ، وآثارها تحكم عالم المادة والفراغ .

وعلى هذا فيمكن القول بأن المعرفة لها مستويات ، مستواها الأول هو معرفة أولية وصفية عن الموجودات المحسوسة ، ومعرفة على المستوى الثانى ، وهى المعرفة المنطقية التى تعالج قوانين الطبيعة ، وعقلانية وجودها وتغيرها .

هذا الوجود الطبيعى المتسق يحمل مقومات التفاعل المتعقل معها ، فيمكنها أن تكون فائدة ومعنى وخيراً وتقدماً ومجالاً خلاقاً ، ويمكنها أن تكون ضرراً وشراً وهلاكاً ، والإنسان هو المتعقل الذى يتفاعل مع الوجود المادى ، والوجود الفكرى فى منطقية نواحيها ، ولهذا نشأ المستوى الثالث فى حكمة استخدام سننها وتنسيق مادتها نحو المعنى ونحو الفائدة .

فالمعرفة الوصفية تصبح ذات قيمة باستنباط المعرفة المنطقية منها ، والحكمة تلى المعرفة المنطقية ، وهى - أى الحكمة - تعنى الفعل بالضرورة ، تعنى الفعل الصالح ، فليس كل فعل من بواعث الحكمة ، بل إن قليلاً من الفعل تحكمه الحكمة ، وما أكثر الفعل غير الحكيم ، والفعل الحكيم ينشأ عنه التغير الحكيم ، فكل فعل تغير ، والتغير الحكيم هو الذى يتحرك

نحو الخير ونحو الفضل والأفضل ، ومن عظمة الحكمة أنها تعنى الفعل النافع الذى يستخدم المعرفة المنطقية لصالح الإنسان ، والإنسان الذى يسعى بالحكمة هو الذى يحقق الضمير وينفع الناس ويرضى الخالق .

إن هذه القفزة الهائلة بين الجماد والنبات هي قفزة الحياة ، وهذا الفصل للإنسان على الحيوان هو فضل العقل ، هذا العقل الذى وعى الأسماء فتمكن من أنواع المعرفة كلها وصار مطالباً بتحقيق الضمير .

يقول الحق : ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ . (سورة الإسراء - الآية ٧٠) .
الملحدون على أساس العلوم الطبيعية :-

لعل أهم ما أنجزه العلم التجريبي فى القرن الأخير هو تطور نظرية تركيب المادة ، وما تلاها من ظهور الطاقة النووية ، وظهور النظرية النسبية والميكانيكا الكمية ، ثم تطور علوم الأجنة، علاوة على ظهور أشباه الموصلات وما تلاها من ثورة الاتصالات وأجيال الحاسوب الآلى ، وأخير الموصلات عديمة المقاومة ، وفى كل هذه المواضيع مازال البحث مستمراً على أشده ، ومازال المجهول أكبر من المعلوم ، غير أن المعرفة بهذه المفردات أسدت للبشرية كثيراً من المنجزات أضفت طابعاً مميزاً لعصرنا .

وكما أن العلوم التجريبية لها تأثيرها الواضح على أسلوب الحياة ، وتيسير سبل المعيشة فإنها قد تصيب البعض بالغرور ، فيتناولون على الدين ظناً منهم بأن هذا العلم أساس كافٍ لتفسير الدين ، بل ذهب بعضهم إلى إهمال حقيقة الدين بدعوى أن العلوم الطبيعية كافية لتسيير الوجود وإدراكه ، وأنه ليست هناك حاجة للاعتماد على المسلمات الدينية .

وهذا المنطق خاطئ فى أساسه ، لأنه تاه فى أحشاء الآلة الميكانيكية للوجود ، وانبهر بحركة أجزائها المتناسقة ، واغتر بما حباه الله من قدرة ادراك قانون عملها وأسماء أسبابها وثبات عليتها ، فظن أنه يملك أمرها ويدرك كنهها ومنتهاها .

فلو نظرنا إلى فكر الملحدين لوجدناهم يعتبرون نظام الكون ومنطقية وسببية أحداثه أساساً لجعله هو الحقيقة كلها بدون موجد لها ، وهذا خطأ جوهري فى أساس التفكير ، لأن الانتظام البديع فى الكون يدل على أن له غاية ودور ، وثبات قوانينه يدل على أنه وجود غفل فى انتظار إنسان يدركه ويتفاعل معه ، ولذا فهو موجود وله هدف مرسوم وخصائص مقصودة ، مثلما ننظر إلى السيارة فنجد أجزائها مرتبطة متوافقة ، يعمل كل منها وظيفة محددة بذاتها تمثل نتيجة أو سبباً أو تضافراً مع بقية الأجزاء ، ولاشك أن هذا كله يرجع

لكون السيارة موجودة لهدف محدد وغاية مقصودة هي نقل الأحمال من بشر ومتاع لمسافات كبيرة بسرعة عالية ، ومنطقية أجزاء السيارة تؤكد براعة المهندس الذى صنعها وتبرهن على وجوده وتميزه العقلى ، ولو أن أجزاء السيارة أوجدت نفسها ورتبت وجودها فأحسب أن كل جزء منها سيحاول أن يكون فعله ومنواله هو الغاية الأساسية ، ولن تتكون من تضافرهم غاية موحدة عالية راقية هادفة .

وإذا نظرنا لموقف الانسان من العلوم التجريبية لوجدناه هذا الانسان البدائى الذى فوجئ بهذه الآلة تعمل ، فانبهر بها وراح يكشف لنفسه عن سرها ، فيكتشف أن أجزائها متحركة فيظن أنها شيطان رجيم يتحرك ويدمر ، وأنها تحرك نفسها ولا يحكمها قانون ، ثم ما يلبث أن يلاحظ أن حركتها منتظمة ، وأن هناك علاقات بين أجزائها ، وأن أجزائها ليست عشوائية تتصارع معا ، ولكنها متكاملة متوحدة مقصودة ، فيدرك أن دورة الزيت الذى يتحرك فى الأنابيب له غاية فهو لا يجرى رجونة وعريضة ، ولكنه ييسر حركة بقية الأجزاء ويسهلها ، وما يلبث هذا الباحث أن يكتشف وظائف أخرى لكل جزء ، حتى يدرك أنها نظام متكامل ، فإن كان من النصفين لأدراك أن لها صانعاً وإن كان من الخاملين - أو الجاحدين - سيقول أنها حقيقة بذاتها موجودة لحالها ، وكذلك الإنسان فى إدراكه للنظام الكونى ، فهو تائه فى أحشائه ، منشغل بمنطقية نظامه ، يكشف فى كل يوم الجديد الذى يطور منظوره ، ويؤسس فهمه ، وإن هو إلا نظام مقصود يرى فيه نظاماً واتساقاً وهدفاً متعالياً كلما أدرك الجديد عنه . يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ . (سورة آل عمران الآية ١٩١) .

وكلمة العلم (Science) أصلها اللغوى المعرفة فى الأصل اللاتينى والعربى ، وقد أرخ العلماء لبداية العلم من عصر الفراعنة المصريين ، الذين كانوا يتبعون طريق المحاولة والخطأ والتجريب ، ثم ظهر فلاسفة الإغريق ، وبدأت الخطوات الجادة من عهد سقراط الذى كان يحاور الشباب فى أروقه أثينا ، ثم تلاه تلاميذه أفلاطون وأرسطو ، وبالرغم من أن المؤرخين العلميين يشيرون لمجهود علماء المسلمين وسبقهم لدراسة الفلسفة الطبيعية ، مقارنة برجال الدين المسيحى الذين أهملوا هذا الجانب تماماً بل وعارضوه ، فإن ما قدمه علماء المسلمين للعلوم الطبيعية لم يبرز على قدره من مؤرخى العلم ، وهم بحق مؤسسو العلم بمعناه الحديث ، وذلك لأنهم ساروا على هدى القرآن الكريم والسنة النبوية .

ويؤرخ للعلم الحديث منذ روجو بيكون وفرنسيس بيكون وديكارت ، حيث تأكدت قيمة التجربة العملية ، واستخدام المنطق لاستنباط الأسباب والعلل ، غير أن البداية الحقيقية للعلم الحديث - كما يعتقد المؤرخون الغربيون - فقد قدم لها جاليليو وأسسها اسحق نيوتن .

وقد قدم لنا اسحق نيوتن في القرن السابع عشر مؤلفه الشهير⁽¹⁾ :

"Principia"

"البرنسيبيا"

"أسس الفلسفة الطبيعية" "The Principles of Natural Philosophy"

وشرح في مؤلفه فلسفة النظرية الميكانيكية للكون المبني على أسس رياضية ، فهو يقول في مقدمة الكتاب : "إن هذا الجزء من الميكانيكا المبني على الحواس الخمس والذي يستخدم الفن اليدوي (صناعة الأدوات) قد استثمره القدماء ، ولكنني هنا أعتبر الفلسفة وليس الفن ، ولا أكتب عن المصنوعات اليدوية (للمصنوعة ميكانيكيا) ، بل عن التئوى الطبيعية وبالذات تلك المرتبطة بالجاذبية والقصور والقوى المرنة ومقاومة الموائع وما شابه ، سواء كانت قوى تجاذب أو تنافر ، ولذا فأنا أقدم هذا العمل كأسس رياضية للفلسفة ، فمشاكل الفلسفة كلها تعتمد على ذلك من ظاهرة الحركة إلى بحث قوى الطبيعة ، ومن قوى الطبيعة لدراسة مختلف الظواهر" .

قدم نيوتن نظرياته في الكتاين الأول والثاني ، أما في الكتاب الثالث فقد طبق نيوتن نظرياته على العالم الواقعي .

وفي البرنسيبيا يعتمد نيوتن على مبدأ الفصل بين القوى المؤثرة على الجسم ، ومن شدة اقتناع نيوتن بحقيقة هذا الفصل فإنه كان أساساً لأهم قوانينه الثلاث وهو القانون الثاني، ويعتقد الكثيرون أن القانون الثاني لنيوتن هو أساس العلم الحديث .

صاغ نيوتن القانون الثاني بقوله :

"يتناسب التغير في كمية الحركة مع القوة المؤثرة ، ويكون في اتجاه الخط المستقيم الذي تؤثر فيه هذه القوة" .

ويهتم نيوتن في النتيجة (I) بشرح مقتضاه بلفظة هذه القوة. إذ يعنى الأثر المنفصل لقوة قد يتواجد معها عدة قوى مؤثرة ، وهذا الأساس هو الذي أدى إلى مبدأ متوازي أضلاع القوى ، الذي أدى بدوره بعد تعميمه إلى مبدأ مضع القوى ، الذي تقوم عليه نسبة كبيرة من أسس علوم الميكانيكا والفيزياء والهندسة .

يقول نيوتن في نتيجة (I) :

"إذا أثر على جسمين بقوتين في نفس الوقت فإنه سيتحرك في قطر متوازي الأضلاع في نفس الوقت الذي تكون حركته تماماً على ضلعي المتوازي بهاتين القوتين منفصلتين" .

(1) "Sir Isaac Newton's Mathematical Principles of Natural Philosophy and his System of the World" Revised by Florian Cajori , University of California Press , Berkeley and Los Angeles , 1961.

هذا الفصل بين تأثيرات القوى كان الأساس للوصول إلى حساب المحصلة - أى نتيجة عمل القوتين معا - وهو ما عرف فيما بعد بالجمع الاتجاهى ، ويعرف نيوتن كمية الحركة على أنها حاصل ضرب الكتلة فى السرعة ، وهذا مفهوم معنوى قدمه نيوتن ، وأعطاه هذا الاسم ، وأقام علاقة التناسب بينه وبين القوة المؤثرة .

وهكذا نجد أن فكر نيوتن يتلخص فى فصل تأثيرات القوى ، وتمييز مسميات جديدة (كمية الحركة) لأن لها دوراً معنوياً فى علاقة الحركة بالقوة .

وقبل نيوتن بعده قرون قدم علماء المسلمين دراسات جادة فى حركة الأجسام ، فالحسن بن الهيثم^(١) يشير إلى ما أسماه "قوة الحركة" وهو يناظر كمية الحركة عند نيوتن ، يقول ابن الهيثم :

".... والمتحرك إذا لقي فى حركته مانعاً يمانعه وكانت القوة المحركة له باقية فيه عند لقائه المانع ، فإنه يرجع من (حيث) كان فى الجهة التى منها تحرك ... وتكون قوة حركته فى الرجوع بحسب قوة الحركة التى كان تحرك بها الأول وبحسب قوة الممانعة ... لأن الحركة المكتسبة إنما تكون بحسب مقدار المسافة وبحسب مقدار الثقل" ، والمتأمل لنص ابن الهيثم يلمح القانون الثانى لنيوتن .

ويقول أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادى فى مؤلفه المعتبر فى الحكمة : "وكل حركة فى زمان لا محالة ، فالقوة الأشد تحرك أسرع وفى زمان أقصر ، فكلما اشتدت القوة ازدادت السرعة فقصر الزمان ، فإذا لم تتناه الشدة لم تتناه السرعة ، وبذلك تصير الحركة فى غير زمان أشد ، لأن سلب الزمان فى السرعة نهاية ما للشدة" ، وتلمح فى هذا النص أيضاً قانون نيوتن الثانى قبل أن يقدم بقرون .

ويقول الإمام فخر الدين الرازى فى كتاب "المباحث المشرقية فى علم الإلهيات والطبيعيات" : "الحلقة التى يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت فى الوسط ، لاشك أن كل واحد منهما قد فعل فيها فعلاً معوقاً بفعل الآخر ، ثم لاشك أن الذى فعله كل واحد منهما لو خلى عن المعارض لاقتضى اجتذاب الحلقة إلى جانبه" .. نعم إنه مبدأ الفصل بين تأثيرات القوى المؤثرة الذى قدمه نيوتن فيما بعد .

وهذا هو الشيخ الرئيس ابن سينا يقول فى كتابه "الشفاء - الطبيعيات" : "... وليست المعاوقة للجسم بما هو جسم ، بل بمعنى فيه يطلب البقاء على حاله من المكان أو الوضع ... وهذا هو المبدأ الذى نحن فى بيانه" وقارن بين قول ابن سينا وقول نيوتن فى

(١) أحمد فؤاد باشا : "العلوم الكونية فى التراث الإسلامى" ، مجلة الأزهر ، شهر رمضان ، ١٤١١ هجرية .

القانون الأول : "يقى الجسم على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم يؤثر عليه مؤثر يغير من حالته ، وهذا للمؤثر يسمى قوة" .

وانظر إلى قول الحسن بن أحمد الهمداني : "فمن كان تحتها (أى تحت الأرض عند نصفها الأسفل) فهو فى الثبات فى قامته كمن فوقها ، ومسقطه وقدمه إلى سطحها الأسفل كمسقطه إلى سطحها الأعلى ، وكتبات قدمه عليه ، فهى بمنزلة حجر المغناطيس الذى تجذب قواه الحديد إلى كل جانب" .

وشحن فى آخر القرن العشرين لا نجد فى علم المقنوفات لدينا أكثر مما قاله هبة الله البغدادى^(١) :

"... فكذلك الحجر المقنوف فيه ميل مقاوم للميل القاذف ، إلا أنه مقهور بقوة القاذف، ولأن القوة القاسرة عرضية فيه ، فهى تضعف لمقاومة هذه القوة والميل الطبيعى ولمقاومة المخروق ... فيكون الميل القاسر فى أوله على غاية القهر للميل الطبيعى ، ولا يزال يضعف ويبطئ الحركة ضعفاً بعد ضعف وبطئاً بعد بطء حتى يعجز عن مقاومة الميل الطبيعى ، فيغلب الميل الطبيعى فيحرك إلى جهته" .

وقد طالعنا التاريخ بكثير من علماء الصف الثانى الذين استندوا إلى قوانين نيوتن ليتجهوا إلى الإلحاد ، اعتقاداً منهم بأن هذا الفهم وهذا التفسير للنظام الكونى يدحض الدين، لأنه يمكن الإنسان من التنبؤ بأحداث مستقبلية ثبت صحتها ، ومن هؤلاء العلماء لا بلاس الذى عاصر نابليون ، والذى كان مهتماً بالنظام الشمسى وكيف أن تصرفه هو نتيجة حتمية لقوانين نيوتن ، وقدم لا بلاس معادلته الشهيرة المسماة باسمه لدراسة كثير من الظواهر الفيزيائية ، ومن فلاسفة الإلحاد الفيلسوف الألمانى كانت الذى قال^(٢) : "إيتونى بالمادة وسوف أعلمكم كيف يخلق الكون منها!" ويقول العالم البيولوجى هيكىل : "اننى أستطيع خلق الإنسان لو توفر الماء والمواد الكيماوية والغذاء" ، وقال الفيلسوف نيتشة "لقد مات الإله الآن!" .

إن كان هذا هو قول الملحدين الذين استندوا إلى فكر إسحق نيوتن فى الحادهم فماذا قال إسحق نيوتن نفسه صاحب البرنسيبيا . يقول إسحق نيوتن عن نفسه^(٣) :

(١) المرجع السابق .

(٢) وحيد الدين خان ، "الدين فى مواجهة العلم" ، للمختار الإسلامى ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٧٤ .

(3) New Standard Encyclopedia, Standard Educational Corporation, Chicago,(1976).

" I seem to have been only like a boy playing on the seashore and diverting my self in now and then finding a smoother pebble or a prettier shell than ordinary whilst the great ocean of truth lay all undiscovered before me" .

"لقد كنت أشبه بالصبي الذي يلهر على شاطئ البحر أتسلى بين الحين والحين بالتقاط حصوة ناعمة أو صدفه جميلة عما حولها بينما يحيط الحقيقة العظيم أمامي غامضاً" .

وتقرن ذلك بقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ (سورة الكهف - الآية ١٠٩) .

﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ (سورة لقمان - الآية ٢٧) .

إنه تبيان الحقيقة من خالق الحقيقة معجزاً موضحاً عالياً على قول البشر المتفكرين ، فالبحر لن يكفى ولو جئنا بمثله مدداً ، وما أعظم أن يختار نيوتن نفس المثال حين من الله عليه بقبس من العلم ، لكأن الحقيقة تحته على أن يسوق نفس المثال .

هذا هو إسحق نيوتن صاحب الجاذبية التى أعمت الصف الثانى من العلماء عن حقيقة الدين ، إنه يشعر بضآلته وضآلة علمه من الحقيقة العظيمة ، ويرى نفسه طفلاً يلهر ، وليس يافعاً متمكناً من الخوض فى المحيط واستكشافه ، وهو نفسه إسحق نيوتن الذى قال فى مقدمة مؤلفه أنه يحاول الاقتراب من الحقيقة ، وربما تكون نظرياته مقدمة إدراك أسلوب للفلسفة أكثر اقتراباً من الحقيقة .

ثم هو نفسه ، إسحق نيوتن كان خجولاً ، يخشى من نشر مؤلفه ، لولا أن شجعه صديقه إدموند هيللى الذى قدمه للجمعية الملكية فشجعه علماء عصره وحثوه على الاستمرار ، وكان على راس مشجعيه روجر كوتس أستاذ الفلك والفلسفة التجريبية ، وهو الذى نشر مؤلف نيوتن وقدم للبرنسيبيا ، وهذا هو روجر كوتس يقول فى مقدمة البرنسيبيا :

" He must be blind who from the most wise and excellent contrivances of things cannot see the infinite wisdom and Goodness of their Almighty Creator and he must be mad and senseless who refuses to acknowledge them" .

"سيكون أعمى من يرى هذا التناسق البديع الحكيم ولا يرى الفضل والحكمة اللانهائية للخالق العظيم ، وسيكون مجنوناً عديم الإدراك من لا يعترف بقيمة هذا التناسق البديع" .

وكان روجر كوتس كان يتنبأ بسلوك هؤلاء المارقين الذين حملوا مؤلفات نيوتن ما لم يقصده نيوتن وأستاذه أنفسهم .

لقد ظن هؤلاء الملحدون أن هذه القوانين هي نهاية المطاف ومنتهى العلم ، فاستخدموا هذه القوانين غروراً ليتطاولوا على الدين وكان العلم بالشئ هو كل شئ ، وليتسه علم بالشئ ، بل هو علم يسير بقدر ما يحمل المحيط من البحر .

ومن أدرى هؤلاء الملحدين أن هذا هو الحل النهائي الذى قدمه نيوتن ، ولقد ماتت كانت ولم يقدم لنا كونا جديداً من المادة الكثيرة حوله ، ورغم توفر الماء ، والمواد الكيميائية والغذاء فلم يستطع هيكل أن يخلق لنا ثمة إنسان .

يقول البرت آينشتين فى كتابه تطور علم الفيزياء^(١) :

"إننا لا نستطيع أن نقرر أن هناك حلاً نهائياً للطبيعة متاح لنا أن نصل إليه يوماً .

ويقول الإمام الغزالي : "إننا نعرف اليوم ما كنا نجهله بالأمس وهذا يعنى أننا فى كل يوم نثبت جهلنا ، ولذا فلن نصل للحقيقة النهائية أبداً" . نعم ... إن المعرفة النهائية للوجود شئ غير موجود .

والراسخون فى العلم يشعرون بضعف علمهم ، وضآلة فهمهم ويخشون ربهم .
يقول الحق:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ . (سورة فاطر - الآية ٢٨) .

﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُونَ
لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ . (سورة الإسراء - الآية ١٠٧) .

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا
وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ . (سورة آل عمران - الآية ٧) .

المقومات والمقاومات لعمل الخليفة :-

إذا استعرضنا تاريخ الإنسان لوجدناه جهاداً لفهم حكمة الله فى خلقه ، واستخدام هذا الفهم لتسخير مفردات هذا الكون من جماد ونبات وحيوان لجعل حياته أكثر يسراً ، ولذا فهو يفهم كل يوم الجديد عن مخلوقات الله و يقيم يبعثه حضارته التى تزداد يوماً بعد يوم ، ومن الناحية الأخرى فهو يجاهد قوى الشر وزينته التى تصده عن طريق الهدى ، والتى تزين له استخدام عقله وعلمه بالمخلوقات لطريق الدمار وسفك الدماء .

(1) A.Einstein, L.jnfeld, "The Evalution of Physics", Simon and Schuster, New York,1960 .

وهكذا اكتملت مقومات الخليفة بما حباه الله من نعمة العقل المميز ، والذي فضله الله بالعلم الكاشف الباحث ، واكتملت له المقومات لخلافته من إبليس وذريته ، الذين يقاومون ضميره، وحكمة استخدام علمه ، فصار على الإنسان أن يجاهد الهوى ، ويجاهد نفسه وربه بأن يسعى للخير الذي جبل عليه ، وبقدرتنا المحدودة في فهم قيس من حكمة الله نقول أن الإنسان اكتمل له الفعل ورد الفعل من مقومات ومقاومات فصار عليه أن يحدد طريقاً بما يتغلب من أى منهما عليه .

نعم ... الخليفة لابد أن يمثل أمام من استخلفه ، ليرى كيف تصرف فيما استخلف فيه ، ولذا فهو لابد أن يقاوم اغراءات الانحراف بالخلافة نحو الشر والبهتان ، والخليفة لابد أن يكون له صلاحيات تمكنه من إقامة الخلافة ، فهو يملك الفعل القادر على الخلافة ، وهو يواجه رد الفعل المقاوم للخلافة ، ولا شك أن عمل الإنسان في الأرض لا يتضح ، ولا يكون له معنى بدون مقومات يتغلب عليها ، فوجود رد الفعل من لوازم الخلافة ، ولعلنا نستحضر هنا فكر علماء الميكانيكا الذين يعتبرون أن الشغل هو حركة ضد مقاومة ، فلكي يكون هناك إنجاز فلا بد أن تكون هناك مقاومة .

ولقد أسكن الله آدم وزوجته الجنة ، وهو الذي خلق ليكون خليفة في الأرض ، إنها مشيئة الله أن يعيش آدم في الجنة قبل أن يهبط إلى الأرض بعد أن أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ، فأدم وحواء مقدر لهما أن يتركا الجنة للأرض التي هي موضع استخلافهما الذي ذكره الحق للملائكة قبل خلق آدم ، فهبط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض لخطئهما المقدر في علم الله ، فأحسوا بالمستولية الملقاة عليهم .

وكما قدمنا فإننا نفهم سكنى آدم وزوجته الجنة قبل أن يهبطا إلى الأرض كاستكمال لتعليمهما وتسليحهما بسلاح العقل والعلم ، فمن رأى الجنة وسكنها وعاش فيها لابد أن يدرك العظمة والحكمة والنعيم الذي خلقه الله ترويحاً لعباده المخلصين ، ولذا فإن هذه السكنى صارت في روع آدم وزوجه حتى إذا هبطا إلى الأرض أدركا الفرق العظيم وميزا الاختلاف الجسيم ، فصارت الجنة نبراساً في روعهما وروع ذريتهما ، يرون بها الأرض دانية سفلى ، يسعون فيها لجعلها أكثر يسراً وأعظم بهاءً ، وأين الأرض مهما سعى عقل الإنسان فيها من جنة الخلد ، فأصبح الإنسان مجاهداً في فهم الوجود مسخراً لها ، وماذا نظن بمن تعلم الأسماء وسكن الجنة أن يفعل عندما يهبط إلى الأرض ! ، لابد وأن يقيم عليها حضارة تليق بخليفة الخالق ، ولن يقف الجهاد ولن يكتمل عمران الأرض وسعى الإنسان فيها ، فأين هذا من جنة الخلد التي أعدت للمتقين ؟ ، وبعبارتنا التي نفهمها على قدرنا نقول أن سكنى الجنة وكأنه الجزء العملى الذى يتدرب فيه آدم على قمة النعيم ، ويدرك قمة الاكتمال ، فيصبح كل ما يقيمه في الأرض لا يقنعه ، فالإنسان لن يتوقف عن

تسخير مفردات الطبيعة حوله ، لأن روعه الذى ورثه عن آدم وحواء عليهما السلام يحمل عبق الجنة الذى يعلو على كل عبق . نعم لقد صار علمنا بالأرض وحضارتنا عليها عملاً لا ينتهى ، وصرنا نقول بكل الحكمة "كلما علمنا كلما جهلنا" فالعلم معين يزيد كلما نهلت منه وكلما علمت الجديد كلما أدركت أنك بحاجة لأن تعلم أكثر مما علمت ، ولا أحسب عالماً حصيفاً إلا ويقول "إن معرفة كاملة للوجود شئ غير موجود" ، فالكون كما قدمنا وضع الله فيه مقومات استخلاف الانسان ليكون قادراً على تسخيرهِ وتطويرهِ بلا نهاية .

ذلك جانب من محاولة فهم سكنى آدم وحواء للجنة ، وبمكتنا إدراك جانب آخر في هذه السكنى ، لقد وسوس الشيطان لهما فأزلهما عما كانا فيه ، تبياناً للور إبليس ، وتحذيراً منه منذ البداية، حتى يدرك الإنسان عظم المسؤولية وجسامة الأمانة ، وبعد أن أكل من الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخلصان عليهما من ورق الجنة ، نعم لقد أدركا الجنس والخلل بعد هذه الخطيئة ، وصارا بالشعور متميزين لرجل وامرأة ، وأصبح الجنس وجوداً فى حياتهما بعد الخطيئة ، سبحانه الله .

لقد قدر الله هبوطهما إلى الأرض ، وقدر لهما الذرية والتكاثر وخلافة الأرض لزمان كبير بمقياس الانسان ، فأنى لإنسان مفرد أن يسعى فى أرض الله خليفة له مقيماً عليها العمران والحضارة مميّزاً للخير والشر ، عارفاً بالله عابداً له ، لابد وأن يتكاثر هذا الإنسان ليحمل أبنائه من بعده مسئوليته ، ويدرك رسالته لأن خلافة الله عظيمة ، وقد صار آدم وحواء يشعران بالميل للتكاثر ، وهو ما قد لهما حتى يستخلفا الله فى الأرض ، وصار التكاثر مرتبطاً بالخلل.

ويادراكنا وفهمنا المحدود نقول أن قصة آدم عليه السلام تمثل قصة الإنسان على مدى عمره عموماً ، ففترة سكنى آدم وحواء للجنة تمثل فترة الطفولة البريئة للإنسان ، يعيشها وكأنه فى الجنة ، ومن يموت فيها يدخل الجنة ، لأنه فى فترة الفطرة ، وبلوغ الإنسان يناظر الأكل من الشجرة وظهور السوءات ، وعندها يتحمل الإنسان الأمانة ، ويدرك قوى الشر والخير ، ويشعر بالمسؤولية ، ويهبط إلى الأرض حيث الواقع والنفوس والشعور والرغبات التى تصبح ليست رغبات جنسية فقط بل تعدو ذلك إلى رغبات السلطة والسيطرة والمال .

هكذا قدر لآدم أن يهبط للأرض بعد أن تعلم الأسماء وبعد أن سكن الجنة ووعى النعيم الالهى المتزف ، وأيضاً بعد الخطيئة التى وعى منها المسؤولية وأدرك منها قوى الشر التى تربص به ، وصارت أعماقه تهفو للخير حتى يظفر بالجنة التى وعها وأدرك نعيمها .

وعلى الأرض تناسل آدم وبدأ بنوه جهادهم فى تطويع الطبيعة لجعل حياتهم أكثر يسراً ، فكانت الأسماء وسيلتهم الطيعة التى وهبها لهم التعليم الربانى العظيم .

الفصل الرابع

كلها

يقرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء كلها ، أى أن علم آدم بالأسماء كامل كما علمه الحق سبحانه وتعالى ، وهذا الاكتمال فى علم الأسماء يجعلنا نطرح بعض النقاط الفكرية ، نوردتها فيما يلى .

كلها فى مقدرة إطلاق الأسماء :

ليست الأسماء فى التعليم الإلهى استظهاراً لألفاظ بذاتها بلغة بعينها ، ولكنه تعليم لمفهوم الأسماء ، وتمكين لقدرة إطلاق الأسماء ، فالإنسان بكل لغاته يطلق الأسماء ، ويتعامل بها ، ويسعى بها حديثاً وتميزاً وإدراكاً ، ففى كل اللغات توجد الأسماء كوسيلة سهلة للتفاهم بين الناس ، وكأساس لإدراك مخلوقات الله من حيوان ونبات وجماد ، بل ومعان وأفكار ، وهذه الوسيلة متاحة لكل الناس بمختلف ثقافتهم وعلمهم ولغاتهم وكتابتهم ، فالله قد حبا الإنسان بقدرة إطلاق الأسماء دائماً كلما ظهر جديد فى عالمه يحتاج لإدراكه والتعامل معه .

وكم ظهرت من الأسماء فى مختلف المجالات ، تميز مدركات جديدة من أجهزة علمية ومناطق جغرافية ومعان فكرية وغيرها ، فعرف عصرنا "الالكترون" الذى أطلقه طومسون على وحدة الكهرباء ، وعرف عصرنا "أمريكا" القارة الجديدة التى اكتشفها امريكوفسبوتشى وسماها على اسمه ، وعرف عصرنا "الصاروخ" و "الكمبيوتر" ، وعرف أيضاً "اللاشعور" فى الإنسان . نعم لقد من الله على الإنسان بقدرة إطلاق الأسماء واصطلاحها ، بل وتعديلها وتصحيحها ، يطلقها على ما يجد عليه من مادة وفكر وأشخاص واختراعات .

وبهذا يكون الاكتمال فى علم الأسماء هو قدرة اطلاقها والتعامل بها دوماً فى كل لغة وزمان ، لكأن الإنسان قد أعطى تفويضاً أو صلاحية للتعامل بالأسماء ، ليدرك عالم المعرفة دائماً ، فكلها له كلما احتاجها ، وقصد قيمتها ، وسعى بها تميزاً وإدراكاً لمخلوقات الله . وكما قدمنا فإن آدم عندما خلقت حواء من ضلعه سأل الملائكة ليروا مبلغ علمه عن اسمها فقال : حواء ؟ لأنها خلقت من شئ حى ، فهو الذى سماها وعلل سبب تسميتها .

كلها فى تعلمها تماماً :

لقد تعلمها كلها تماماً ، واستظهرها كلها ، وكأن الإنسان يعرف الأسماء أصلاً وكلما عن له جديد فى مخلوقات الله لاستخرج اسمه الثابت فى علم الله ، من علمه الكامن

الذى حباه به الحق سبحانه وتعالى ، فكأن الإنسان يعلم كل الأسماء ، ولكنه يعيش عمره كله في الدنيا ليستخدم بعضاً من هذه الأسماء في حياته ، وربما يكون هو الذى يقدر اسماً جديداً لشيء جديد ، وهو في الحقيقة يجتر اسمه بما قدر الله لهذا الاسم في علمه ، فيثبت الاسم الصحيح في عرف الإنسان ، المقدر في علم الله ، ليستخدمه الناس ، فهم قد تعلموه تماماً من عند الله ، وقد يتعثر الناس في إطلاق الاسم ، فيعدلوه ويصححوه ، وقد ينشأ الاسم في حياة الناس دون أن يحددوا له ميلاً محدداً ، ولكنه في النهاية يثبت على ما قدر الله له وما علم به ، اسماً نافعاً يتضافر مع غيره من الأسماء ليعبر عن مخلوقات الله .

كلها ليكون حساب اليوم الآخر عادلاً :

لقد تعلم آدم الأسماء كلها ، إنه التعليم الكامل من الله وتفضيل للإنسان الذى كرمه ربه ، فألقى في روع آدم علم الأسماء كلها ، وهنا يمكننا أن نتبصر ، بفكرنا المحدود ، في حكمة الله الذى جعل علم الأسماء كاملاً غير منقوص ، إعداداً لخليفته في الأرض ، ذلك الخليفة الذى سيسعى في أرض الله عاملاً متصرفاً ، لا بد وأن يكون مدرباً متعلماً مهياً لطبيعة المهمة المنوطة به

وضحنا من قبل أن الأسماء هي المدخل إلى معرفة الوجود ، والتعليم الكامل للأسماء يعنى اكتمال الإدراك للوجود ، وعلى هذا فالإنسان متوافق في داخله من حقيقة الوجود كله حوله ، وإن هو إلا يستخرج جزءاً من هذه المعرفة ليسعى بها في حياته ، ولكن داخله ملئ بالحقيقة كاملة ، وموقفه من أمور الدنيا يحكمه إدراك كامل لمفردات الخليفة ، فهو متوافق مع الوجود كله ، مسلح له معد لمسائله ، يتخذ قراره في الخير والشر بعمق الإدراك للعلم كله ، ليس مستظهِراً له بدقائقه ، ولكنه مدرك له بكليته وثوابته ، فصار ضميره كاملاً وقراره خالداً وموقفه اختيار كامل ، ومن ثم فحسابه حق وخلود جزائه حق .

الحمد لله العادل ، الذى من على آدم بعلم الأسماء كاملاً ، فصار سعيه في الأرض على درب الحقيقة ، مميزاً للخير والشر بلا لبس أو غموض ، لأن مفردات الوجود كلها عنده يسيرة كما علمه علام الغيوب .

نعم اكتمال المعرفة فضل كبير ، ولنضرب لذلك مثلاً بسيطاً ، هب طفلاً صغيراً قد استظهر حروف اللغة وبعض كلماتها البسيطة ، وأردنا أن نقدمه لامتحان تختبر فيه استيعابه ، ولكن هذا الطفل لا يدرك معنى الامتحان ولا مغزاه ، لا شك أن هذا الطفل لن يميز معنى الغش في الامتحان ؛ بالنقل من الكتاب أو سؤال القائمين على الامتحان ، لن يميز أن الغش غير مطلوب وأنه رذيلة ، وقد يدهش إذا عوقب يافع غش في الامتحان ، لأنه لا يدرك حدود المسألة التى يعالجها ، ومن ثم فلن يكون ضميره متعضياً يافعاً كامل العلم بمفردات الموقف ليتخذ تصرفاً مستولاً واعياً .

ونحن ولا شك ، بنو الانسان ندرك الخير والشر بوضوح ، فالإنسان العاقل البالغ يدرك الرذيلة والفضيلة وإن كان جاهلاً أو فقيراً ، أبيضاً أو أسوداً ، أيّاً كان ، فى روعه يكتمل فكر الوجود وحقيقته ، ولذا فهو متوافق مع الواقع الفسيح من حوله ، ولذا فقد صار خليفة لله فى الأرض ، فهو يملك كل الأسماء ، أى يدرك كل مفردات الوجود ، ولذا فإن موقعة من أمور الدنيا موقف نهائى يدل على مسلكه ، وعلى اختياره الحر الكامل ، وقراره الذى ارتضاه ، وهو يعرف مفردات المسألة كاملة فاستحق بذلك الخلافة ، وصار بذلك مثلاً للحساب ، فيجازى إن كان من الصالحين ، ويعاقب إن كان من الضالين .

يقول الحق فى سورة غافر :

﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ (سورة غافر - الآية ١٧) .

ويقول فى سورة التحريم :

﴿يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (سورة التحريم - الآية ٧) .

والله وملائكته وأولو العلم يشهدون له بالعدل : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (سورة آل عمران - الآية ١٨) .

وبلغة عصرنا نقول أن تعلم آدم للأسماء كلها صار فى وعية علماً كامناً كاملاً ، يدرك الحقيقة برمتها ، ولكنه أثناء حياة الانسان يدرك بوعيه قدراً من هذه الأسماء ، ليتعامل بها ويسعى بها ، وربما يوفقه الله لأن يكشف اسماً جديداً لحقيقة فى الوجود ، وإن هى إلا منة من الله ليستخرج من وعيه هذا المفهوم على هيئة اسم نافع ، وكأنه انتقال من اللاوعى للوعى ، فأعماق الإنسان العقلانية تحمل الحقيقة كلها ، ولكن تعامله العملى الواعى مع الوجود يستخدم جزءاً يسيراً من هذا العلم الإلهى العظيم .

ولذلك فالإنسان متوافق مع الوجود منهياً من داخله للتجاوب معه باتساق ، بل هو ملئ بالحقيقة الكاملة التى تجعل تناوله لما يطرح عليه تناولاً فى صلب الحقيقة ومساها ، ولذا فإن الإنسان فى مواجهته لهذا الوجود يسعى بالأسماء مطوراً له متطوراً فى إدراكه عنه ، وفى كل يوم يعدل فكره وإدراكه عن حقيقة الوجود ، ويرتقى بعلمه عنه ، لأن الوسيلة التى يملكها كاملة تحيط بأسماء الحقيقة ، فصار إدراكه المنبثق عن تفكيره وممارساته يتحرك على درب الحقيقة متبعاً لها .

ولذا فمن الطبيعى أن نعدل اليوم إدراكنا الذى وعيناه بالأمس ، ونحن نستخرج من أعماقنا الانسانية التى تحمل الأسماء كلها فى كل يوم أسماء جديدة ، بل نحن نملك اختبار

الأسماء ومحاولة فكها لأسماء تفصيلية ، فيخرج علينا من يدرس تركيب الذرة ليذكر وجود النواة ، بل ومن يذكر تركيب النواة من بروتونات ونيوترونات .

وعلى هذا يكون ادراكنا الكامل للأسماء أساس لتمكنا الكامل من تطوير إدراكنا للوجود ، وقدرتنا على تعديل مسار فكرنا على درب الحقيقة التي خلقها الله ، وما أخرى أن يكون خليفة الخالق مهيو لأن يتعامل مع الوجود الذي خلقه الله بما يكفل له أن يكون على قدر الخليفة ادراكاً وتطوراً وتعديلاً لما يصنعه .

فتعلم الأسماء الكامل يعنى التهيو الكامل للسعى على طول الزمن الكامل (مهسا امتد) لإدراك الوجود ، والتعمق فى فهمه دائماً ، حتى يتسنى إقامة الحضارة التى تليق بالخلافة ، وتعلم الأسماء الكامل يعنى إكمال الإدراك وتوحد الضمير لكل البشر ، فالمفردات كلها كامنة فى الانسان تعليماً خالصاً من الله ، ولذا فالتصرف فى الأشياء والمعانى هو تصرف موقف يحكمه الاتساق الكامل مع مخلوقات الله ، فصار الضمير حاضراً واعياً مدركاً للخير والشر منبثق من اكتمال العلم الكامن ، فأنت إن لم تعلم ما هو الامتحان فلن تدرك خطيئة الغش فى الامتحان ، وإن لم تدرك تماماً ما هو القضاء فلن تدرك خطيئة شهادة الزور ، ولذا فالإنسان بكل أجناسه ولغاته يدرك الخير والشر ويميزه لأن روعه ملئ بالادراك الكامل ، وما أعد الخالق العظيم .

ولعلنا ؛ بقدرتنا المحدودة على التفكير ؛ نقول أن الإنسان فاق الوجود الدنيوى ، لأن الله قَدَّرَ لآدم وحواء أن يسكنوا الجنة لفترة ، فاطلعا على ما هو خير من الدنيا وما فيها ، لأن الناموس الذى تمضى عليه الجنة خير وأفضل من ناموس الأرض ، الذى امتزج فيه الخير والشر ، ولهذا فمن رحمة الله صار الإنسان مهياً لأن ينجح للخير بفطرته ، ولاسيما وأنه أدرك أن ترك الجنة مقرون بالخطيئة وعدم الطاعة لله عز وجل .

لكأن الإنسان ، فى المثل البسيط الذى نضرب به ، دخل إلى الامتحان فى الأرض وهو متعلم للأسماء كلها ، بل ومتفوق لدخوله الجنة قبل الأرض ، فأحس بعبق الخير ولمس سمو الفضيلة ، فصار جاشاً للخير بفطرته ، ومن مرق عن ذلك قاصداً ، استحق عذاب اليوم الآخر ، لأنه اتخذ قرار جحود ، وجنح عن الحق الساطع شراً وضلالاً وبهتاناً .

وكما قدمنا فى الفصل الثالث فإن المعرفة لها مستويات ، مستوى المعرفة الوصفية ، تليها المعرفة المنطقية التى تحكم تصرف المادة ، ثم حكمة استخدام المعرفة لتحقيق الضمير الإنسانى ، ولكى يدرك الإنسان كل هذه المستويات فلا بد أن يتعلم الأسماء كلها ، كاملة غير منقوصة ، حتى يمكنه أن يتعمق فى الإدراك ليحقق الضمير ، فإسم واحد فى المعرفة المنطقية يعطى إدراكاً لتصرف أسماء عديدة فى المعرفة الوصفية ، ولذا فإذا أردنا أن نتحرك رأسياً فى أسماء المعرفة ، فعلينا أن ندرك المتسع الأفقى كله عند كل ارتفاع ، وهذا التدرج

المتعالى للمعرفة يضع الحكمة وتحقيق الضمير فى قمة الهرم الفكرى ، ولذا فلكى نحقق الضمير علينا أن ندرك مفردات المعرفة كلها ، وإلا فلن يستقر الضمير ولن تكمل أسباب الحكمة ، ومن يقبل ذلك لخليفة الحق سبحانه وتعالى؟.

وانظر إلى قول الحق يعلمنا مستويات المعرفة : ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ - (سورة يوسف - الآية ٧٦) .

ويقول : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ (سورة المجادلة - الآية ١١) .

ومن عظمة الأسماء أنها تعبر عن مستويات المعرفة كلها ، وتعالج الفكر كاملاً ، ومن نعم الله علينا أن مَنْ بها على آدم فعلمها له كلها .

كلها فى تنوع قدرات وعلم البشر : -

وننظر إلى تعلم الأسماء كلها بمنظور آخر .

الأسماء ألفاظ بسيطة تماماً ، وتجعلنا نستحضر شخص المسمى ، أو معناه فى حالة الأسماء المعنوية ، بكل ما يحمل شخص المسمى من مفردات لانتهائية ، فهذا الاسم اليسير أن هو إلا مفتاح نفتح به معين المعرفة ، ولكن كم من الأسماء نعرف ؟ ، نعم نعرف الأسماء كلها فى وجداننا ، ولكننا نستحضر جزءاً من علمنا بالأسماء أثناء حياتنا ، ومن الصعب أن نحصى كل الأسماء المعروفة للإنسان العادى ومن الممكن أن يكون هناك إسم لشىء معنوى صعب فهمه ولكنة بمرور الزمن وتعامل الناس معه يصبح يسيراً .

فلو اعتبرنا أن المجهود العقلى للإسم صغير وعدد الأسماء كبير ، بمعنى أن كل إسم يسير فى تعلمه وقد حباننا الحق سبحانه وتعالى بالأسماء كلها ، فيكون المجهود العقلى لتعلم الأسماء كلها يناظر حاصل ضرب الصفر فى ما لانتهاية ويعبر الصفر عن المجهود اليسير للإسم الواحد وتعبر ما لانتهاية على تعلم الأسماء كلها ، وفى علم الرياضيات فإن حاصل ضرب صفر فى ما لانتهاية يساوى كمية غير معينة ، فالنتيجة طبقاً لعلم الرياضيات مقدار غير محدد ، مختلف طبقاً لكل حالة على حدة .

نعم .. مقدار غير محدد ، يختلف باختلاف البشر ، يختلف بمقدار ما يمين به الحق من علم وفهم لأبناء آدم ، ولكنهم كلهم قد تعلموا الأسماء كلها ! ، وما أبدع التعليم الربانى العظيم .

أنت لا تستطيع أن تحصى كل ماتعرف ، وتشعر بأن عقلك لا يضيق بما تعرف ، وفى داخلك شعور بلانتهائية ماتعرف ، وامتداد عقلك بما يتسق مع الوجود حولك ، تلك منة من الله لبساطة الأسماء وعظم عددها وعدم تحديد مقدار الجهد العقلى فيها مجتمعة ،

فهى ممكنة وسهلة ولانهائية ، ومقدار استحضارك لها غير محدد ، بل هو يختلف بينك وبين أبناء جنسك ، أى أن مقدار العلم بالوجود يختلف بين البشر ، سبحانه الله ، إن هذا هو قمة التناسق بين الانسان والوجود ، أن ياخذ كل إنسان دوره ، وأن يستحضر علمه بالوجود بمقدار ما قدر الله له من علم الأسماء التى يعرفها كلها .

فكل منا حباه الله بقدر من العلم غير محدد لنا ، ولكنه محدد فى علم الله ، لكننا قد تعلمنا الأسماء كلها ، وصرنا جميعا مدركين لمسلمات الوجود ، واكمل لنا تمييز الخبيث من الطيب ، فصرنا مكلفين ومحاسبين ، لكننا بالقطع نختلف فى قدر ما حباننا الحق من العلم والحكمة، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة البقرة الآية : ٢٦٩) .

وانظر إلى قوله أيضا : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه الآية : ١١٤) .

وهولاء هم بنو اسرائيل عندما بعث الله لهم طالوت ملكا : ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة الآية : ٢٤٧) فالله يزيد من يشاء من العلم ويؤتى الحكمة من يشاء فهو العليم الخبير بل واين هذا العلم الذى حباننا به العليم من علمه اللدنى ، يقول الحق : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء الآية : ٨٥) .

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنعام الآية : ١٠١) .

﴿إِلَّا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ (سورة فصلت الآية : ٥٤) .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (سورة

النساء: ١٢٦) .

خاتمة

قدمنا فى الصفحات السابقة قصة خلق آدم عليه السلام واستخلافه فى الأرض ،
ليعبد الله ويسعى بالعقل والضمير مجاهدا ليقيم الحضارة ، ويميز الخير والشر . بما فطره الله
على الحق والخير والعدل والسلام ، ولكى يتمكن من خلافة الله فى الأرض فقد حباه الله
بعلم الأسماء فعلمها له كلها ، كاملة غير منقوصة ، وبفضل هذا التعليم الربانى العظيم ،
استحق الخلافة ، وتسليح لمواجهة مسئولياتها .

وهكذا قدر لآدم أن يكون خليفة لله فى الأرض ولذا فقد سلحه الله بتعلم الأسماء
لتمكنه من التمييز والإدراك ، والتدخل فى مخلوقات الله مسخراتها متميزا عليها بنعمة العقل
والتفكير ، وصار إبليس له عدوا يزين له طريق الشر حتى يصده عن رسالته فى الأرض ،
وهو يكافح كى يقيم الحضارة والعدل والسلام .

ولقد حاولنا فى الفصل الثانى الأقتراب من مفهوم الأسماء ، ووجدنا أنها كالشفرة
التي تدل على شىء كبير ولكن بإشارة بسيطة يسيرة ، وانتهينا إلى أننا عبرنا عن الاسم بأنه
تلخيص لما لانهاية من المعلومات إلى أقل حيز فكري بسيط ، أو بعبارة أخرى أن الأسماء هى
احتواء ما لانهاية داخل صفر ، وذكرنا أن الاسم كأنه هذا الصندوق الأسود الذى يحتوى
الحقيقة الغامضة للوجود.

وتبين لنا أن تعلم الأسماء يستتبع إدراك الانفصال فى الطبيعة وأنها مقسمة إلى
مفردات ، وليست كلاً كاملاً ، ولذا أمكننا تمييز مكوناتها كل على حدة ، فاستطعنا
استخدامها وتسخيرها ، ورأينا أن إدراك الانفصال يعنى إدراك الاتصال ، فامكن الانسان أن
يجمع مكونات الوجود لخدمة حياته وتيسيرها ، وكان هذا أعظم ما أثر فى حياة الانسان
وتفاعله مع الطبيعة ، وذلك أننا وجدنا أن فعل الانسان على الأرض إن هو إلا إعادة تنظيم
المفردات ، لانتاج خواص جديدة مختلفة عن الأرض الغفلة ، فأمكن الانسان أن يستخلص
الفلزات من الخام الترابى وأن يصنع الزجاج من السليكات والألومينا وهى الرمل والحجر
الجيرى ، واستطاع أن يصنع البلاستيك وأن يستخلص البنزين من البترول وقس على ذلك
الكثير .

وهكذا تحرك الإنسان فى عالم المعرفة بما حباه الله من علم الأسماء ، فاستطاع أن
يدرك العلم الوصفى والعلم المنطقى والحكمة والضمير ، وصار متحركا للخير والفضل
والمعنى ، فاستطاع أن يقسم العلم الفلسفى إلى علوم مختلفة حتى يتمكن من كل واحد منها
على حدة ، فابتكر علوم الجغرافيا والفيزيكا والكيمياء وعلم النفس وغيرها .

ولاشك أن التعليم الرباني العظيم تعليم للمفهوم وليس تحفيظاً لأسماء بعينها ، بل هو تعليم لقدرة إطلاق الأسماء ، ومفهوم الإدراك عن طريق الأسماء ، فصار الإنسان قادراً على إطلاقها دوماً كلما احتاجها ، صارت وسيلة طيعة له تمكنه من الحركة في عالم المعرفة الفسيح .

ونحن نفسر الأسماء ، وندرك الجديده عن الأسماء بأسماء أخرى ، ثم إننا نسعى من الأسماء وبالأسماء ونحو الأسماء ، فمثلاً نسعى من أسماء الخشب والمسمار والغراء وبأسماء القطع والوصل والثبيت إلى أسماء الباب والشباك وغيرها ، وهكذا صار الإنسان مجدداً ومضيفاً ومغيراً في أرض الله .

وقد وجدنا أن تعلم الأسماء كان هو الأساس الذي قام عليه العلم البشري ، وذلك أن الإنسان أستطاع أن يدرك مبدأ التحليل ، وهو أسلوب ييسط المشكلة إلى عدة مشاكل صغيرة منفصلة ، يمكن حل كل منها على حدة ، ثم نقوم بتجميع هذه الجزئيات معاً حتى يكتمل الحل المتكامل ، وهذا الأسلوب قد اندرج على كثير من العلوم التجريبية وعلوم الرياضيات ولاسيما علمي التفاضل والتكامل حيث نجد مبدأ فصل المتغيرات "Separation of Variables" ، ونجد مبدأ الفصل في علوم الميكانيكا ، حيث يمكن فصل تأثير القوى على الجسم ، والحصول على التأثير الكلي للقوى عن طريق تجميع التأثيرات المختلفة لهذه القوى فيما نسميه "المحصلة" ، فتصبح المحصلة تعبيراً كاملاً عن كل القوى الموجودة فيما يخص تأثيراتها الميكانيكية .

نعم .. إن المبادئ الأساسية التي قام عليها العلم البشري ، استقت جذورها من الأسماء ، بل إن الإنسان قد وضع ما يسمى بالتعريف كأساس لتعريف الأساسيات في العلوم المختلفة ، وهذا التعريف إن هو إلا المحاكاة الإنسانية للأسماء ، فالتعريف حدد المفردات طبقاً لآخر معلوماتنا عنها حتى تتوحد اللغة العلمية ويمكن التعبير المباشر الواضح بدون لبس .

وكما قدمنا فإن إدراك الطبيعة يتكون من حلقة مغلقة من الأسماء ، نتحرك فيها بين الأسماء لتفسر الأسماء بعضها ، وتشابك الأسماء بشكل محكم حتى أننا إذا أردنا أن نعرف اسماً واحداً علينا أن نعرف كل الأسماء ، ولا يكتمل علمنا باسم واحد إلا إذا علمنا كل أسماء هذا الوجود . نعم كلها .

ولقد علمها الحق سبحانه وتعالى لآدم كلها ، نعم .. اكتمل لبنى آدم علم الوجود فصار الإنسان متسقاً مع الوجود الخارجي متناغماً معه ، كل ما يراه ويكتشفه إن هو إلا استحضار لما في داخله من علم الأسماء ، فهو كمن يراجع المسألة التي استذكرها مسبقاً ، ولذا فهو متمكن في اكتشافه للوجود ، وهو مدرك لحقيقة الوجود الكاملة ولذا فقد صار ضميره كاملاً وتمييزه للخير والشر واضحاً جلياً لأن تفاصيل الوجود كلها كامنة في داخله ،

فصار أهلاً لاستخلافه في الأرض وصار قراره بين الخير والشر قراراً خالداً ، يستحق عليه حساباً خالداً .

تعلمها كلها ، فصار قادراً على التعامل مع الطبيعة دائماً ، وصار مطوراً لمفردات الطبيعة دائماً ، وصار مميزاً للخير والشر مكتمل الضمير ساعياً بالحكمة ، ثم صار بنو آدم مختلفين عن بعضهم بمقدار ما حباهم الحق سبحانه وتعالى من العلم ، وكما قدمنا في الفصل الرابع فإن عدد الأسماء لا يمكننا إحصاؤه ولذا فلا نملك إلا أن نعتبره ما لا نهاية من الأسماء ، ثم أن المجهود الفكري في كل اسم يسير حتى يمكن اعتباره مقرباً من الصفر ، ولذا فإن حجم الفكر العلمي في كل عقل يساوي حاصل ضرب ما لا نهاية في الصفر ، وهذا المقدار في علم الرياضيات هو كمية غير معينة ، كمية غير معينة في علمنا ولكنها معينة في علم الله ، فهي كمية غير معينة بمعنى اختلافها حسب كل حالة ، وعلى هذا الشكل هذا شكل إنسان قد من الله عليه بنصيبه من العلم الذي يختلف عن غيره من البشر ولا يستطيع الإنسان تحديد مبلغ علمه بالقياس ولكن مبلغ علمه محدد في علم الله ، ولكن كل البشر مشتركون في تعلم الأسماء كلها والسعي بها وإدراك الحكمة والضمير ، ولذا فكل البشر عالمهم وجاهلهم ، كبيرهم وصغيرهم ، أبيضهم واسودهم ، كلهم قدموه من أعمال .

نعم .. تعلم آدم الأسماء كلها ، فصار خليفة مسؤولاً ممثلاً للحساب ، ولكن علمه محدود ، وإدراكه عن الوجود نفسه محدود ، وهو وبنيه لاشك سيكدحون في أرض الله ، وسيجاهلون الحياة الدنيا .

﴿ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾

(سورة آل عمران : الآية ٨).

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة
أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس
عشر الهجري (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) لعمل على:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكلية والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانية وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.
- ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:
- عقد المؤتمرات والندوات العلمية والفكرية المتخصصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلمية والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.
- وللمعهد عدد من المكاتب والفروع في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقات للنعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية الإسلامية والغربية وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH

هذا الكتاب

محاولة لفهم قبس من آى الذكر الحكيم ، وإدراك الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم حيث يوضح المؤلف من خلال قصة سيدنا آدم عليه السلام وهبوطه إلى الارض وتعليمه الأسماء كلها وجعله خليفة الله فى الارض ، وكيفية الجمع بين القراءتين والتدبر و التفكير فى آيات الله فى الـكون المنظور ، ولإدراك الإعجاز العلمى فى القرآن من خلال قول الله تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ مستطلعاً أقوال المفسرين حول المراد من تعليم سيدنا آدم الأسماء كلها .

ومن خلال تعليمه مسميات الأشياء كلها تظهر مهمة سيدنا آدم فى اعمار الارض وبيان تفضيله على الملائكة بمعرفة مسميات الأشياء وبهذه المعرفة وهذا العلم يمكنه تحقيق الاستخلاف وعمارة الارض بالعلم والعمل حتى يكون الإنسان مسلحاً بالعلم الربانى مقترباً بذلك من إدراك الحكمة الإلهية من خلق الانسان وتعليمه مسميات الأشياء لأن إدراك الأسماء هو الأساس الذى سيقوم عليه علم البشر ، فالإنسان بهذا العلم يكون متوافقاً مع الوجود مهيباً من داخله للتجاوب معه حتى يكون مجدداً ومضيفاً ومغيراً فى أرض الله محققاً الأعمار والاستخلاف .

ويعتبر هذا الكتيب ورقة بحثية يحاول فيها المؤلف تعريف الأسماء وإدراك مغزى تعليمها لآدم ودور الأسماء فى العلوم التجريبية وحكمة الله من تعليمها لآدم كاملة وغير منقوصة ، وبيان كيف تحرك الانسان فى عالم المعرفة بما حباه الله من علم الأسماء ، فاستطاع أن يدرك العلم الوصفى والعلم المنطقى والحكمة والخير وصار متحركاً للخير والفضل مجاهداً ليقيم الحضارة الإيمانية وبذلك استحق أن يكون خليفة الله فى الارض .